الإسلام في السنغال

أبحاث ودراسات حول انتشار الإسلام والفكر
الإسلامي في إفريقيا وتصوير حال المسلمين
في إفريقيا الغربية

الشيخ أحمد التجاني سي

مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ سنغَالِيٌّ حَمِيمٌ بَلْ هُوَ زَعِيمٌ مِنْ زُعَمَاءِ أَكْبَرِ طائفةِ إِسْلاَمِيَّةٍ فِي إِفرِيقِيا – تُعَدُّ بِالملايين. ذُو ثَقَافَةٍ وَاسِعَةٍ يُجِيدُ العربية التي تلقاها عن والده المرحوم خليفة التجانيين الإمام الكبير أبي بكر سي. الإمام الكبير الحاج مالك سي كما يجيد الإفرنسية كأهلها.

كان سفيرا في القاهرة. ولكنه في الوقت الذي نحن فيه يعمل في كل ما يعود لصالح المسلمين بل ولصالح الإنسانية يرتبط بصداقة وثيقة مع المسؤلين العرب... وهم يقدرونه لحسن فهمه وطيبه وسياسته الحكيمة. وكانت له رحلات في البلاد الإسلامية ليفيد صداقة جديدة لإخواننا السنغاليين والإفريقيين وليعرض وضعهم واستعداداتهم على الزعماء في المشرق.

وليربط بينهم بروابط المحبة المبنية على الفهم والعلم والحقيقة.

أسلوبه سهل ولكنه جذّاب، فيه قدرة وبراعة ووضوح، يلذ القارئ ويجتذبه ويفيده.

المكتبة السنغالية

في خدمة التراث الإسلامي السنغالي

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

مقدمة

باسم القرآن الكريم الذي لا ينطق عن الهوى وباسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جُعلت الأرض كلها مركزًا لدعوته الكريمة وموضع طهارة لهؤلاء الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، كنا ولم نزل نشجع أخانا وصديقنا الشيخ أحمد التيجاني سي على نشر المخطوطات التي وجدناها عنده والتي تهدف إلى تمكين المسلمين في إفريقيا من فهم بعض حقائق الإسلام ومن المساهمة في تنظيم الحركة العالية الإسلامية المعتدلة. بل ومن الانضمام إلى هذا النادي العلمي والثقافي والأدبي الإنساني الذي رأينا أبوابه مفتوحة على كل منطقة من المناطق الشرقية والغربية.

وأخيرًا بشرنا الشيخ أحمد بأنه اتفق مع صاحب دار مكتبة الحياة للنشر والطباعة السيد يحيى الخليل لتحقيق هذا الغرض والإنجاز هذه المهمة الخيرة...
وما أحوج الجنس البشري إلى مثل هذا النضال الفكري ضد النظريات الفاسدة! لا سيما والشيخ أحمد تعاون مع رجال الخير في المشرق لتنظيم مكتب علمي وثقافي يبقى همزة الوصل بين الجانبين العربي والإفريقي بل وبين الحضارتين الشرقية والغربية وعلى الله قصد السبيل.!

المكتبة السنغالية

في خدمة التراث الإسلامي السنغالي

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

الإسلام دين تطور

إنه لا يُذكَر في بعض هذه النّواحي إلاّ ويتبادرُ إلى الذهن أنّه نوعٌ من نَوافل الخيرات ؛ وأنّه هو الرّنّة والأنّة عندما يحتاجُ المسلم إلى تمحيص ما في قلبه من الحُب..

ولكنَّ الإسلامَ أعزُّ وأشمل من أن يكون رنّة وأنّة فحسب؛ بل لم يكن الإسلام إلا حادثةً قطعيةً تربط أطرافَ تاريخ الكون عامّةً وأطراف التاريخ البشريِّ خاصّة، تربط هذه الأطراف بعضها ببعض: تربط المُشاهَدَات بالمغيّبات، وتربط الأمم الغابرة بالأمم الحاضرة؛ وتربط الحضارات البائدة بالحضارات السائدة اليوم... كما تربط أطراف السموّ الإنساني كل طرف فيها بطرف: تربط الغنى بالإنفاق والعفة، وتربطُ الفقر بالكسب والأكل بالمعروف، وتربط العزّةَ والشرفَ بحمل النقائص...

وكلُّ ذالك ليحيا المسلمُ وكأنه ثقةُ الله في الإنسانية؛ هذه الثقة التي تبدو لنا تباشيرُها؛ في هذه الآية المحكمة:

بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥) القيامة

وفي هذه الآية الضامنة:

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(٣) الإنسان

هذه الثقة التي أصبحت الحجة الأولى في تمكُّن الإنسان من إدراك ما في الحياة من الأسرار والمعاني إمّا بآلات حسّيّة وإمّا بآلات معنويّة؛

هذه الثقة التي نرْجُو من الإنسان أن يمثل الحكمةَ العليا في سبيل توحيد العناصر وفي سبيل إرجاع فوائد هذه العناصر وكوارثها إلى مركز الإيجاد والتكوين؛ بل إلى رُوح الحقائق الكُبْرى الموجودة في خبَايا الرحمان الرحيم

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

إن هذه الحادثة القطعيَّة التي تُعين باسم الإسلام تنطقُ أوّلَ كل شيء بهـــذه الـــرَّوابط الحكيمة وتنطق بأنَّها سرُّ الحياة وأنَّها عائدة إلى الاعتراف بالمغيّبـــات ولا شـــك أن كلمـــة الاعتراف التي يُبْدِ لها القرآنُ بكلمة الإيمان تشملُ الإدراكَ والحركةَ وتشملُ التقاديرَ الفطريّـــة والمنطقيّة؛ بل إنها تنطق بكل هذه الاتصالات المستمرة التي تجعل الكون وتجعل الإنـــسان في الكون عنوانًا

وأعجَب عنوان من المُغيَّبات ؛ يقول القرآن الكريم في هذا الموقف:

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) فاطر

ويقول:

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَـــصِيرٌ بِمَـــا تَعْمَلُـــونَ(١٨) الحجرات

ويقول:

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِـــنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤١) فاطر

ويقول:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِـــكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١)وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَـــارِ وَيُـــولِجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(١٣) فاطر

السيد الشيخ احمد التجاني سي

ويقول:

وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا(١١١) الإسراء

ولكن هذه الحادثةَ تُعدُّ لكل فريقٍ من الناس ما تعدُّ له من علوم ومعارف، من خصائص وامتيازات؛ فريق يرى أنها وحي وإسراءٌ وهجرةٌ وغزوات ؛ وفريق يرى فيها معنًى من فتوحاتٍ ومُهادنات ومفاوضات ؛ وفريقٌ لا يرى إلا أنها ازدهارٌ في علوم وحياة بمخترعات وخطواتٌ إلى عصر من نور ؛ وفريقٌ يجد أنها طرقٌ وأحزابٌ وعزائمٌ وأنها فرارٌ من شك ووسوسة، واجتماعٌ باسم غناءٍ وترتيل. ثم لا إنكار إلاّ ما يمجُّه الذوق وتأباه الفطرة ويكرهه العقل ويردُّه ؛ لتصبحَ هذه العلوم وهذه المعارف ولتظل هذه الخصائص والامتيازاتُ خيرَ ما يكون من التراث الذي يتزوَّد به العاملون طوال آلاف من قرون ؛ والذي يسم هؤلاء العاملين بطابع من شخصيّة محمد صلى الله عليه وسلم: ولو كانوا تحت ضغط الاستعمارِ ولو كانوا تحت استعباد أجنبي

يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ(٥٥) النور

هكذا تلك الحادثة تربط الإنسانَ بالعقيدة، والعقيدة بالسياسة، وتربط السياسة بالحضارة ثم تضعُ حولَها من الحدود والسدود ما لا يخرج عنه ولا يتجاوزه الإنسان وهكذا تلك الحادثة تجعل المغيّبات مركز الإيحاء والتكوين. وتجعل الموجودات والكائنات كلّها تحت

تصرُّف هذه المغيّبات. وأنه مهما تطورت الآراء ومهما اجتهد الإنسان، وجَدَّ في تحويل الآراء إلى قُوى ماديّة فعّالة.

فيظهر لنا من ذالك إن الجهل بهذه الحقيقة ربّما أدّى إلى تغيير وجه الكون أو إلى إبهام المغيّبات بالظلم، فترجع المعارف إلى العادات وتعودُ الاختصاصات إلى الأباطيل ويُرَدُّ الإنسانُ نفسه إلى أسفل ما يكون من الانحطاط ... ولو عاش باسم العقيدة. أو باســـم الحـــضارات. يقول الله عز وجل رفضًا لهذه المسئولية:

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ(٣١) غافر

ويقول:

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(٥١) الأنفال (١٠) الحج

فإن هذا التراث الذي يعدّه الحكماء أعجوبة عالمية أوسع من أن يكون في حيّز أية طائفة من الطوائف أو في حيّز أية أمة من الأمم.

ولكنه بعثة من بعثات المغيّبات الميمونة وإرادة من إراداتها المحمودة ليكون الأمر كُلّه لله جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا شك أن الأمر كلّه لله بسابق المشيئة.

وإذا أردنا أن نفهم عنِ الإسلام روحَ التعاليم الغيبية التي يتوسّل بها الإنسان إلى أداء الأمانات ما ظهر منها وما بطن، والتي يحتاجُ دائمًا إلى السَّيْرِ وراءها للترجَمة عن الحوادث...

فإنا ولا شك نعترف أوّل كل شيء، بعدم حرية الإنسان تحت تصرُّفات هذه التعاليم أو بلا إمكانية سيطرته على تنزُّلاتِ الحوادث...

وكان العلم في ذالك وهو صفة من صفات الغيب ووديعة من ودائعه. لا فضيلة من فضائل الإنسان.. و ذالك على حدّ ما قال الكتاب العزيز في هذه الآية:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر

بما أنّ العقل البشري هو الذي يرشد الإنسان في التعبير عن حقائق العلم ليس إلا أداةً من ملايين الأدوات التي يستعملها الغيب لحل ملايين الألغاز التي لا تسع هذه الحياة المعقّدة لفهمها ولا لتحصيل الحل لها...

وكان سيرُ الإنسان وراء هذه التعاليم للترجمة عن الحوادث بل ولتوجيهها وللشهادة عليها هو معنى هذه الكلمة المعبّر عنها بالتقدّم أو بالتطوّر أو بالسّير وراء مقتضيات العصر والتي تنحصر كلُّ معانيها في هذه الآية الكريمة الموجودة في القرآن الكريم:

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(١)إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(٢) الإنسان

وذالك لِيُطبّق على الإنسان القانون التطوري الذي لا يحيا بقعة من الأرض ولا يحيا كل ما عليها إلاّ وِفق مقتضيات هذا القانون...

وبما أنّ الإنسان الذي يختار العزلة والعطلة ويختار السير إلى وراء، لا يكون سيره هذا من تعاليم الغيب وليس هو من الغيب في شيء..

يقول في ذالك الإمام الحسني الفاطمي، السيد أحمد التجاني بكلمة حازمة:

((بسير زمانك سر!)) فكأنه يريد بذالك أن التربية كلها تنحصر في سير الإنسان بسير الزمان... وأن العزلة والعطلة والتأخر إنكارٌ لكيان الأمّة ولسعادتها المنشودة في الكتب المقدسة ؛ يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ (٩٦) الأعراف

فيفهم الإنسان من الآية معنى العدل والإشفاق ويفهم عنها معنى التقدم والتطور... وأن الخير كله في إغراق الأوقات في الاستكشاف والطلب، بل في تحقيق الحياة بالعمل...

هذا وإن التطور في الإسلام عبارةٌ عمّا عليه التاريخ والتاريخ البشري بخاصّة من الاحتفاظ بالذكر ومداولة هذا الذكر بين الأمم وبين العصور المختلفة- ليظهر للإنسان أن

هناك مصدرًا من العلم لم يكن ليُحيط به إلاّ العقل المجرّد، وأن هناك نوعا من الإرادة لم يكن من طاقة الإنسان أن يسعى دونها ولا أن يعمل عنها ما دام نفسا وجوارح... وأن هناك صورة من القدرة الخلاّقة التي إذا شاءت أن ترى في الإنسان خليفة في الأرض إنما شاءت أن يكون ذالك بالقيادة هذا الإنسان إلى تطبيق هذه المبادئ التعليمية التي ترى في الله الخلاّقُ لتعليم وترى فيه فاطر العوالم الذي لا يئوده حفظ ما بين العلوية منها والسفلية...

بل إنما شاءت هذه القدرة الخلاقة أن يكون ذالك بتطوع الإنسان إلى الأسباب، أسباب العلم إلى أسباب التنظيم... فيكون في هذا المستوى خالقًا بخلق الله ومنتظما تحت طوع تنظيمه جل جلاله.

وكل ذالك ليكون الخلق شيئًا ويكون البشر شيئًا آخر... بل وليبقى بينهما من سرّ الصلة ما يجعل التاريخ وكأنه حكاية عن تحقيق هذه الوصلة بين هذا وذاك

وهل التاريخ إلا أقوى ما يدل على أن هناك سلطة غيبية لا يكاد تتحقق معها حرية الإنسان ... هذه السلطة التي يقول القرآن الكريم فيها:

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٤٠) مريم

وهل الوراثة هنا إلاّ في معناها الحقيقي الذي لم يكن الإنسان إلى جانبها إلاّ كقدح راكب؟

وهل التطور أمام هذه الوراثة إلاّ بعض هذه البيانات التي يعتمد عليها التاريخ عندما يعترف بأن العلم صفة من صفات الغيب وأنه بنسبته إلى الغيب شيء ابدي.

وهل التطور في مستوى الإنسان إلاّ روحُ الهداية في طريق العمل وفي كونه خليفة لله في الأرض- وما دامت الخلافة هنا تعود إلى الكسب وتعود إلى التنظيم ؛ مادامت الخلافة هنا تدعو إلى الإصلاح ... وإلى تزويد الأرض بالسعادة... ولئلا يخرج التاريخ عن حده الطبيعي ؛ حد الاحتفاظ بالذكر ومداولة هذا الذكر بين الأمم المختلفة ... وليبقى استباق الأمم إلى الخيرات هو الضمان الوحيد في تخليد الحياة البشرية – يقول القرآن في ذالك:

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا (١٤٨) البقرة

وشتان ما بين الاستباق إلى الخيرات والتكاثر في الأموال...

ويقول رفضًا لهذا الأخير:

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢) التكاثر

على أن الاستباق إلى الخيرات نوع من التكافؤ بين الأمم عندما تدعو الفنون وتدعو العلوم إلى التعاون والتعارف وعندما يحتك الدماغ بالدماغ وتميل الإرادة نحو الإرادة... وكان كما قال القرآن الكريم حكاية عن نبي الله سليمان عندما أراد أن يقابل الملكة بلقيس..

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ (٣٣) النمل

فظهر من ذالك سر التكافؤ... وأن جنس التطور يجنس الحضارة التي تكوّن لها إطارا وخير إطار. وأن من الضروري تفاعل الحضارتين عندما تدعو إلى ذالك مقتضيات سير العصر... بل يظهر من ذالك أن العزلة أو العطلة لم يكن من شأنها أن تقضي على الحوادث، بل من شأن الحوادث عندما تنزل أن تقضي على العُزلة... وهذا ليبقى الإنسان وهو نفس القيمة للتاريخ وليبقى التاريخ وهو موضع الكسب والإصلاح للإنسان ثم لا حرج حينئذ في حكم الغيب الذي يقول:

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ (١٨٥) البقرة

ومهما بلغت التعاليم إلى حد التربية فإنما اليُسْرُ هو الغاية في ذالك لا العسر.

وهل التطاول إلى الكسب إلا أقربُ ما يكون من الراحة؟ وهل الراحة الحقيقية إلاّ في عمل مفيد؟

يقول القرآن الكريم مخاطبًا الإنسان الأوّل تشجيعًا له على مجابهة الحوادث:

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٥)إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٦)فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(٧)وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨) الشرح

يقول الإنسان الأول في ذالك ((لن يغلب العسر يسرين)) بل يقول:

أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا. ويقول أيضًا في هذا المعنى:

إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه...

نعم! يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر...ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، لأنه يعلم طبيعة الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد...

نعم لا عذر ولا عزلة ولا عطلة- يقول محمد ﷺ في ذالك((فاتركوني ما تركتكم)) لا سيما وقد تبين الحلال والحرام... وأما غير ذالك فاتفاقيات ومعاملات بين المسلمين. ((ولا تجتمع أمتي على ضلال !))

وهذا محمد ﷺ يعطي التاريخ حق التاريخ، ويعطي التطوّر حق التطوّر، ويشير بذالك كله إلى أن الحياة ماض وحاضر ومستقبل وأن بين كل من هذا وذاك مقتضيات وضروريات وأن الإنسان هو المسئول الوحيد أمام الترجمة عن الحوادث وان التعاليم الغيبية لا تخلو من التعاضد والتعاون مع الإنسان عندما يحتاج إلى هذه الترجمة وأن جهل التاريخ إنكار لرسالة الإنسان وغض من قمة الحياة... إن كانت هناك قيمة مع الجهل...

وهذا محمد ﷺ يعترف بقانون التجدد الذي يتميز به سير العصر... والذي يحمل الحكمة اليونانية على أن تصف الحياة بالخلد بل والذي يقول من أجله أمير الشعراء:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب

ولا أرى إنسانا أعرف بروح التجدّد من محمد ﷺ ...

فإذا ألقينا النظر إلى وراء واكتشفنا كل ما في التاريخ من التقلبات... فلا بدّ أن يظهر لنا هذا السر الذي يربط بين طرفي التاريخ العجيب... وذالك من الاسكندر الأول إلى نبي الله

محمد القرشي الهاشمي... فالأول نطق قبل كل أحد بضرورة ارتباط الشرق بالغرب لئلا تؤدي الحروبُ بينهما إلى القضاء على أسباب التجدّد... ولو أن الحروب مما لا يهدم هذه الأسباب!

وهكذا محمد ﷺ لم يزل يرفع الحواجز بين الطوائف وبين الأمم وبين الأديان... ويذكر في ذالك أن الأرض لله وأن العاقبة للمتقين.. ممّا جعل الإسلام يتجدّد مع العصر ويتطور مع سير الطوائف والأمم والأديان إلى أن بلغت به الحضارة إلى الذروة التي ما بعدها من ذروة...

وكانت الروابط الزوجية التي ارتضى بها محمد ﷺ بينه وبين مارية القبطية وارتضى بها بعده شاب الأسرة الشريفة الإمام الحسين بينه وبين الأميرة "بيبي شاربانو" بنت آخر ملك من ملوك بني ساسان كان كل ذالك من خير ما مكّن للإسلام من التمتع بهذه الحياة العجيبة التي كلّها علم وكلها أدب وكلها فن وكلها خُلُق وجمال! بل كلها دين وحكمة!...

فكانت بغداد في وقت ما عاصمة الإسلام تحت الدولة العباسية وتحت رقابة المنصور بالله- أمير المؤمنين!!

بل كانت حينذاك عاصمة اليهودية والمسيحية وعاصمة المتطوّرين من جميع بقاع الأرض... بعد ما خطا الإسلام هذه الخطوة الواسعة البعيدة عن مدينة الرسول إلى نواحي الكوفة ومنها إلى دمشق عاصمة الأمويين ومن دمشق إلى بغداد..

وكل هذا ليكون التطور قبل كل شيء كدافع من دوافع الإرادة الغيبية ... هذه الإرادة التي لا تفرق بين الشرقي أو الغربي ولا بين الأبيض والأسود ولا بين اليهودي والمسيحي ولكنها توجه في سبيل سيره إلى الكمال. هذا الإنسان الذي يبني ببناء السماء ويخلق السماء ويصلح بإصلاح السماء وينتظم بتنظيم السماء... بل يحيا فوق ذالك تلك الحياة المثاليّة التي لا سقوط فيها ولا رذيلة والتي تسع الأرض بالخلق وتسعها بأدوات نافعة مفيدة؛ بل فسعها بإغراق الأوقات في العمل وتخليد العمل بالإتقان والراحة ... ثم لا لغوٌ بعدهما ولا تأثيم

ومن هنا يفهم المسلمون أن التطور لا يعني انقطاع الخلف عن السلف، كما لا يعني إنكار السلف بالخلف... ولكنه ظل يتنقل مع سير الشمس ويتلون بلونها وكأنه كما يقول القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من عبارة:

أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (٤٥) الفرقان

على أنه خطوة بخطوة وخطوة بخطوة. حتى يقطع مسافة بعيدة .. وإلا فكما يقول القرآن الكريم دفاعًا عن موقف التطور أمام المتعطلين:

لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) البقرة

ولا ينال هذا العهد العملي إلاّ هؤلاء الذين لا يعرفون إلاّ العمل ولو كانوا أبناء الجبابرة ولو كانوا مجهولين...

وهل العدل بالنسبة إلى الله عز وجل إلاّ في مجازة كل أحد ما عمل ومن جنس ما عمل!؟ إن خيرًا فخير في الدنيا والآخرة وإن شرًا فشر فيهما وإلاّ فلا حياة ولا شيء!.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته!!!..

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

الطريقة إيمان وعمل

هل بعد ما أخذت الصواريخ تنطلق لغزو الفضاء وطفق الإنسانُ يأخذ عُدَّتَهُ لفتح المجاهل لفضائية... ولاحتلال القمر وهل بعد كل هذا نمشي القهقرى ونرجع إلى الوراء؟ .. وذالك لنكلمكم ونناقشكم فيما يتعلق بمشايخ الطرق... فيما يتعلق بهذه المعتقدات المظلمة المظلمة التي جعلت البعض موضع استغلال لبعض آخر؟

أما الصواريخ فشيء وأما المعتقدات فشيء آخر- ولكل منهما أحكام ورجال لاسيما وأن التاريخ البشري قطع متجاورات وجمل يرتبط بعضها ببعض: يرتبط حاضرُهُ بماضيه ومستقبله بحاضره. وهل يقبل العقل البشري أن تقوم قائمة الدين بغير الفكر وأن تقوى دعامة الفكر بغير الدين؟ أو بعبارة أخرى:

هل يقبل العقل السليم أن يكون الدين إلاّ دينًا يفكر وأن يكون الفكر إلاّ فكرًا يتديَّن؟!.

أو لم يكن من واجب الإنسان الذي يُرَكِّب الصاروخ والذي
يغزو الفضاء ويحتل القمر أن يؤمن بهذا الربّ الذي ركّب مُركّب الصاروخ وعلّمه ما لم يعلم؟

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) الصافات

وهل الغرض هو الإلمام بالعلم ثم الاعتماد على هذا الإلمام لتركيب الصاروخ ولغزو الفضاء من دون أن يحسم ذالك الحاجة؟ من دون أن يحسم ذالك الفزع والجزع؟ من دون أن يحسم ذالك المرض والموت؟

وهل يستوجب العلم في نفس الإنسان الإحاطة بالحقائق؟ فيكون الكفر بعد العلم كارثة من أعظم الكوارث؟

أم لم يكن الكفر بعد العلم إلاّ من العروض التي تعرّف بعجز الإنسان وأنه في هذه الحياة المزدوجة لحل غباوة وحيرة ونقصان؟

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ(٣٣) الرحمن •

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا (١٣) السجدة

وأمام كل هذا نتساءل:

ما مصدر العلم؟ ما حقيقة العلم؟ ما حد العلم؟ وما غاية العلم؟

فيحجب الإنسان، وبينه وبين هذه الحقائق حاجز من أمنع الحواجز: من عمى في بصره ؛ من وقرٍ في سَمْعه ؛ من ثقل في نطقه... ولله في مرحلة من أشقى مراحل سير الجنس إلى الكمال!!

وهل من الرأي الصائب أن تكون الحياة إلاّ حياة مطعمة ومسغبة والإنسان بينهما في خسارة! والإنسان بينهما في شقاوة!

بهذا نرى أن الإنسان لا يطلب السعادة إلاّ خارج هذه اللقمة التي تتحول إلى ما نعرف، وإلاّ خارج هذا السرور الذي انتقل بمجرد تنقل عقرب الساعة.

بل بهذا يتأكد علينا أن نتشوف إلى تلك الحقيقة التربوية المقدسة التي تنطق بحياة أخرى: بالحياة الأخرى، والتي تصارح الإنسان بأن الحياة الأولى مستقرٌّ ومستودع، وأن الآخرة خيرٌ من الأولى... إلى تلك الحقيقة التي من أسمائها الدين وَالّتي تحْمِلُ ضعفَةَ العلماء على أن يعتقدوا أن الدين عبادات وحسب وأن العبادات تنحصر أيّ انحصار في بعض الأمور التي يتلقونها باسم الرموز باسم النواميس وأن القرآن لا يربّي الإنسان إلاّ ليكون ساجدًا أو صائمًا

بل أن الدين هو تقديس الحركات كلها بالإيمان حتى الإثم وحتى الجريمة وحتى الكفر...

إن الأيمان الإثم بالجريمة. بالكفر خطوة واسعة إلى تقديسه بالإجتناب، بالتوبة، أو بتفويض لأمر إلى الله جلّ جلاله...

وهل الإثم، وهل الجريمة، وهل الكفر إلاّ من الحقائق التي يستدلُّ بها على وجود الله؟ وهل لإثم، وهل الجريمة، وهل الكفر إلاّ جزء من العلم؟

ولتخليد هذه النواميس العلمية والخلقية والروحية، ولرفع الإنسان إلى مستوى الإنسان؛ أخذت الكتب وأخذت الأنبياء وأخذت العلماء تعمل في إثر الوحي... إثر هذا المصدر الفذّ

الذي يأخذ الرِّجلَ من الغيب والذي من أجله أسّست الشرائع والمذاهب ونُظمت المناهج والطرق...

بما أن السيد الشيخ أحمد التجاني الحسني الفاطمي هو من رجال هذا المصدر وبعض منظمي هذه المناهج والطرق التي تربّى فيها ملايين من أهل العلم دعانا داعي السعادة والخير إلى أن نباحثكم في نشأته أيها السادة، لا لكونه فلاناً أو ابن فلان، ولكن لكونه دينًا وفكرًا.. لكونه حياة وفلسفة.. لكونه تربية وترقية وذالك كما قال الشاعر:

وما عـرّف الأرجـاء إلاّ رجالُـه   وإلاّ فلا فضل لتـرب علـى تـرب

أو كما قال الآخر:

ليس الشريف الذي الحسنيُّ والده   بل الشريف شريف العلم والحسب

وكان في ذالك كمترجم لتلك النواميس أو كمعلق على تلك الحقائق ! بل كان في ذالك كمن يبني بيتا إلى جانب بَيْت... ثم من بيت بيت فقصر!

بل كان في ذالك رجلاً يحب الاتصال بالرجال ويحب زيارة الأعيان المبجلين إلى أن عقل هذا الشيء العجيب؛ إلى أن عقل أن الطريقة أيةً كانت لا تخرج عن هذا الحد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

وأن التربية مهما علت وتقدست لا تتنكّرُ للعقل ولا يتنكر لها العقل- وهذا أساس فلسفته في تنظيم هذا المجتمع الربانيّ الذي يُسمّى بالطريقة.. ولذالك يُلقى الأوراد بآية من آيات الحرية والاستقلال؛ بهذه الآية التي تشيرُ إلى أن الحياة اختبار ثم بيعة:

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

(١٠) الفتح

وبهذه الآية:

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ (١٨)

الفتح

بل يجيب عندما يسأل السائل عن موقف التطرق أمام الأحكام الشرعية فيقول: أما التطرق فأمر عقلي!... وليس بلازم إلاّ على من ألزمه على نفسه. إلا على من يعدّه من الضروريات التربوية!

ويفهم الإنسان من هذه البيعة... أن هناك معنى عظيماً من الاحتراز والتوقّي وأن هناك نوعًا من المثابرة والتدريب – كما قال في القرآن الحكيم:

فَلاَ تُطِعْ الْمُكَذِّبِينَ(٨)وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩) القلم

وكما قال:

تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) آل عمران

وذالك عندما يأخذ الإنسان يُبْدلُ شيئا بشيء: يبدل بالضعف القوة، يبدل بالتعطيل العقيدة ويبدل بالرذيلة الفضيلة وذالك بمثابرة وتدريب!

وهذا سر تقييد الطالب بمدرسة من المدارس الروحية... لا ليكون الطالب مادّة غذائية تملأ بطن الشيخ؛ أو قوة عملية تحولُ بين الشيخ وبين الحاجة ... ولا ليكون الطالب محروم الكرامة أو منقوص الحرية كأنه لم يتطرّق إلاّ لحمل الدعايات ونشرها بين آفاق البلاد... لا ليكون الطالب كمُسْتَبِدٍ يستغل نقائصَ الشيخ كأنه لم يتطرق إلاّ لتوزيع الأباطيل وإلاّ للسيطرة على الشيخ وعلى ولد الشيخ وعلى حرم الشيخ حتى وعلى عقيدة الشيخ !!. والشيخ في ذالك يبقى سبّةً خالدةً على وجه الإسلام وعلى وجه محمد ﷺ وعن وجه ذي العزة وعلى وجه البلد وعلى وجه كل ذي عقيدة!

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

نعم! إن التطرق أمر عقلي... وهذا كما ذكر القرآن تعريضا برجال المسيحية فيقول:

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(٢٧) الحديد

كما يفهم الإنسان من معنى الاختيار الجدَّ والاستمرار في الطلب.. وأنه يستوجب العلم والعقل من الطرفين وأنه يأبى الانقيادَ الأعمى ويأبى التقليد

فيُعبّر عن ذالك للطرف الأول بقوّة السلوك وللطّرف الثاني بقوّة الاستنباط فيقول:

إنه لا يمكن الإحاطةُ بالفروع إلاّ إذا كان هناك تعمق في العلوم الأدبية والمنطقية بل يقول: إن كلاًّ من هاتين المرحلتين لا يغني عن النتيجة والغرض شيئا...

بما أن النتيجة والغرض هما عبارة عن هذه الإرادة الربانية التي تقول:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (٦٤) النساء

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣) الصافات

وتقول – فيما يقابل التأمين من التخويف:

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (٨٦) الإسراء

وبما أن العلماء هم ورثة الأنبياء فالتأمين والتخويف إذاً يعم هؤلاء وهؤلاء: يعم الأولين والآخرين – وللوارث ما للمورث:

ولكن الخطر والخطر كله في الاختيار ثم لا نرى كلمة أحق بالتعبير عن ذالك مما قاله الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال)

قال:

لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت، وقبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجنة هذا البحر العميق وأخوض غمرته وأتوغّل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، و أتقحّم كل ورطة. وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشفُ أسرار مذهب كل طائفة لأميّز بين مُحقّ ومبطل و متسنّن ومبتدع: لا أغادر باطنيًا إلاّ وأحبّ أن أطّلع على بطانته ولا ظاهرا إلاّ وأريد أن أعلم حاصل ظاهرته، ولا فلسفيًا إلاّ واقصد الوقوف على كل فلسفته، ولا متكلما إلا وأجتهدُ في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلاّ وأحرص على العثور على سرّ صفوته، ولا متعبدا إلاّ وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطّلا إلاّ وأتجسّس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته... ولا ولا ولا

بل لا يخرج الاختيار عن إطار العقل ولا عن إطار الحرية (وذو عقل لذي عقل حميم، وحرٌّ لحرّ رفيق)...

ما يحمل الغزالي على أن يقول أيضا:

إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق، وتباين الطرق. بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلاّ الأقلون وكل فريق يزعم أن الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون! وهو الذي وعدنا به رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين حيث يقول:

((ستفترق أمتي ثلاثًا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة)) ، فقد كاد ما وُعد أن يكون.

* * *

ولا نجاةَ إذا إلاّ في القطعيّات لا في الظنّيات... ثم لا كرامة إذًا إلاّ في الآراء الصائبة لا في الدعايات – يقول الشاعر:

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به

في طالع الشمس ما يغنيك عن زُحل

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

ولذالك تتفق المذاهب والطرق وتتفق العلماء المحققون أن أهمية الاختيار تستدعي واحد من المسئولين الروحيين إلى توفير أسباب العلم والمعيشة والكرامة لسد الحاجات وإغناء الضروريات... يقول الشيخ أحمد التجاني في ذالك ق

من واجب المتصدر إلى ذالك يعني لهذه المسئوليات الروحية المقدسة رفع الهمة عن أبناء الجنس؛ بل يعبّر عن هذه المسئوليات بالخلافة العظمى عن الحق أو بالبر زخية العظمى بين الحق والخلق أو بالنيابة عن الحقيقة المحمدية — وذالك لتقدير هذه المسئوليات التي مبدأها الشهادة ومنتهاها الغيب... وذالك للترغيب وللترهيب.!

وينطبق على ذالك ما قاله الشيخ محي الدين ابن عربي من ((أن القائم بهذه المسئوليات هو مرآة الحق ومحل النعوت المقدسة، وأنه إن كان ذا دُنيا وثروةٍ تصرّف فيها تصرف عبد في ملك سيد كريم وإن لم يكن له دُنيا وثروةٌ لجأ إلى الأسباب من غير أنفةٍ ولا استكبار ثم لا يجلس عن حاجته عن حجته إلاّ للضرورة))

وهذا بخلاف هؤلاء الذين يدّعون أنهم أصحابُ الأحوال فهم ربّانيون لا مسئولون... والمسئول إذاً منـزّهٌ عن الحال لا يلتفت إلاّ إلى العلم وإلاّ إلى نتائج العلم ... لا تُطوى له أرض ولا يمشي في الهواء ولا يأكل من غير سبب بل يجوع باضطرار لا باختيار ويصبر كما يصبر الناس على النكاح وعلى تنظيم الأسرة وذالك لما فيه من أداء الحقوق الاجتماعية التي لا تحقق المسئوليات إلاّ بها

بل يطبّق على ذالك ما قاله الإمام الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني من أنّ من واجب القائمين بهذه البرزخية الهيمنة لا على العالم الحسّيّ وعلى رديفة المعنوية فحسب، بل على عوالم أخرى يبلغ عددها آلافا مؤلفة! ولا بدّ له من الهيمنة عليها واحدًا بعد واحد! وإلاّ فما ثم إلاّ أعداء الله وأعداء الناس ولا ثم إلاّ جهلة العلماء الذين أتى الغزاليُّ بصورهم في كتابه المنقذ من الضلال فقال: ((مثلهم صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص للزرع...))

وما قوة السلوك إن لم تكن عبارة عن تطور الشابّ المؤمن في سيره إلى هذه المسئوليات وما قوة الاستنباط إن لم تكن هذا المعنى العظيم الذي يجعل العلماء ورثة للأنبياء ويجعل الوحي وكأنه لا يستلزم النبوة وذالك وفيقا لما في هذه الفكرة الربانية التي تقول:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر

والتي تقدر الجهود المبذولة في تحقيق أماني هذه الفكرة السامية فتقول:

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا(٧٢) الكهف

ثم تقول:

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(٥) المزمل

وتختم ذالك بهذه البيّنة:

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا(٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا(٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٩) المزمل

ويقول محمد ﷺ في ذالك:

قيّدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده هو أشدُّ تفلتا من صدور الرجال من العشار في العقل!

وهذا بحفظ الأهل والسيطرة على الحوادث وهذا بإدراك الحياة وفهم معانيها المختلفة.

وهل من الممكن وصولُ الإنسان إلى هذه الغاية النادرة النظير إن لم يكن هناك قسطٌ وافرٌ من العقل؟ إن لم يكن هناك روح المخاطرة وروح الهمة؟ يقول الشيخ:

((همة الإنسان قاهرة على جميع الأكوان))..

وكان يجب أن يردّد مع قول الشاعر:

له همم لا منتهى لكبارها
وهمته الصغرى أجلّ من الدهر

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

فيرجع الأمر إلى ما ذكرناه أوّلاً ممّا يتعلق بالاختبار ويتعلق بالبيعة.. أما الاختيار فصورة إيجابية لقوة الاستنباط وأمّا البيعة فعبارة جديدة عن قوة السلوك بل إن لهذا ولذاك صلة وثيقة بالحياة والطبيعة وبما يدور حولها من الحوادث والظروف والفصول..

هكذا كان الشيخ يقدس الحوادث ويقدر الظروف والفصول ويشير بذالك إلى أن تطور الجنس معنى من تنـــزُّلات الحوادث وتقلبات الظروف وتنوّع الفصول ولذالك نرى أن نقيد هنا بعض المبادئ التربوية والفلسفة التي يأوي إليها... ولم يأو إليها إلا لشدة ارتباطـــه بهـــذه التنـــزُّلات وبهذه التقلبات وبهذه التنوعات: لهذا المبدأ الذي لمح فيه أبوّته الروحيـــة للأبنـــاء الطبيعيّين: وهذا المبدأ الذي يذكر فيه أن التربية لا يكون في هذه العصور المتحضرة إلا بالهمة والعمل وهذا المبدأ الذي ينكر فيه على الأحكام الشرعية التي لا توافق العقل فيقول: ((ما في الكتب الفقهية إلاّ الخصومات))؛ وهذا المبدأ الذي يُعلن فيه أن التجارة أولى من نوافل الخيرات وأن لم يتلق طريقته عن الغيب إلاّ لتحديد هذه النوافل ولتوجيهها وفق مقتضيات الحـــال... وأن التبذير في هذه القرون الأخيرة هو العدوُّ الأكبر للمجتمع الإنساني؛ ولهذا المبـــدأ الـــذي يشرح فيه معنى الحياة الزوجية وأن المصاهرة العادية في العراقيل التي تـــمنع المتناكحين مـــن التحرر؛ وهذا المبدأ الذي يُحرِّض فيه الشباب على الاحتراف وأن الاحتراف لا يقبل الظلـــم ولا ينافي الحريَّة؛ وهذا المبدأ الذي يقدّم فيه حق النائم على حق الذاكر إن كانا في بيت واحد، وهذا المبدأ الذي يُغري المسنين فيه بإغراق أوقاتهم في التدريس والذكر حيـــث أن العُزْلَـــة الروحية التي يألفها المسنّون إمّا أن تنحسم بالتدريس والذكر وإمّا أنها تبقى خطرًا عظيما على مستقبل المجتمع؛ وهذا المبدأ ثم هذا المبدأ ثم هذا المبدأ إلى ما لا نهاية له.

ولم يزل في هذه النظرات التي تُعَدُّ من أرقى درجات الواقعية والإيجابية إلاّ أنه فوق ذالك كان يعتنق مبادئ روية أخرى توجد فيما وراء الواقعية والإيجابية وفيما وراء الطبيعة؛ هـــذه المبادئ التي تجعله ناطقا باسم الغيب، والتي لم تزل تجعل السادة وتجعل الأخيار ناطقين باســـم الغيب؛ هؤلاء السادة وهؤلاء الأخيار الذين كانت صلتهم بالكون هي السرّ في ما ينطقـــون

به من الخفايا والغيبيات التي تجري وراء الظواهر ولو كانت لا تخرج عن حدّها ولا تخرج عن حدّ الإدراك...

إن الإنسان أعجوبة لا غاية لها كما لا غاية لأعجوبة الطبيعة لكونهما راجعيْن إلى الغيب، إلى هذا الغيب الذي لا ينحصر على الزمان ولا يقتصر على المكان، إن فلسفة الزمان والمكان أمرٌ خيالي وعادي ولذالك تتفاوت الحضارات وتتفاوت الأمم على حسب تفاوتهما أما هذه الفلسفة وأمام حدود الوحي والإدراك.!

فلتنظر إلى ما نطق به صهر الرسول وأسد الله الغالب علي ابن أبي طالب حين سئل أين الله قبل خلق السماوات والأرض؟ فأجاب:

((كان الله ولا مكان))... ثم لننطق معه بهذا المبدأ العجيب: وكان العلم ولا مكان! وكانت الأخلاق ولا مكان!

ثم لننظر ما قاله الشيخ أحمد في ذالك حيثما يعترف بلا ألوهية الوحي وأنه لا يستلزم النبوة ولا العقيدة.

بل إن هذه الصلة بينهم وبين الكون تجعلهم مستولين ومهيمنين على طبائع الأشياء وتعلمهم منطق الطير والوحش ... بل تُفْهمهم دقائق الحركات الحسّية والمعنوية فيجاورون الملوك والشعوب وهم لا يُفرّطون في توجيه نصائح إليهم ولا يتغافلون عن تحقيق معْنى الوساطة بين الملوك والشعوب.

بهذا يُلْقِ الشيخ أحمد هذا النبأ العظيم ويقول:

((إن المشيخة لا بدّ لها من وضع سياسة خيرة بينهما وبين الملوك وبينها وبين الشعوب وما دامت المشيخة محيطة بأسرار الحياة المدنية وما دامت هي معين تلك البرزخية العظمى – وإلاّ فما أخسر الدين في رسالته الحسيّة والمعنوية. وها كم نموذجًا من الرسائل التي كان يوجهها إلى الأمراء...

وهذه إلى أمير المؤمنين السيد سليمان بن محمد سلطان المغرب... وبعد السلام عليه يقول:

وأوصي السيد الأمير بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وأعظه بما وعظه الله به قال سبحانه وتعالى:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ (١٨) الحشر

وقال أيضا:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(٧٠) الأحزاب

وقال أيضا:

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (٢٨١) البقرة

ولك في تدبير آيات الله وعظ واعتبار وهداية واستبصار.. فاطعم نفسك من هذه الأدوية بالثبات والاصطبار لا سيما وفيها نفع عظيم لكل من أدمن متابعة هواه بالتوالي والإدبار.

وأقول: السلامُ على السيدِ أمير المؤمنين ورحمة وبركاته!.

وعلى هذه الجادّة كان يسعى السيد الشيخ أحمد التجاني ويسعى معه عليها رفقاؤه جزاهم الله عن الأمة الإسلام خيرا!

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

الإسلام السنغالي بين طبقتين

الإسلام في السنغال اليوم يعيش بين طبقتين: طبقة تقابل الإلهيات بنوع من الغفلة والتقصير أو نوع من الجمود والتكاسل... وطبقة ترى في الإلهيات سببا من أسباب التدهور والانحطاط وعاملاً من عوامل الهدم والاستئصال وهذا هو الإسلام السنغالي يمشي ويستمر على هذه الحالة... لا يدري من أين يأخذ النصيب ومن أين يستمد القوة الفكرية والروحية التي يستعين بها على خلق كيانه وعلى تقوية شخصيته ... فإمّا إن الإسلام هو الفارغ من الحق والمنقطع عن الحقائق التي لا تضعف معها الأديان ولا تخفق معها الدعايات ... وإمّا أن المسلمين هم الذين يبدّلون هذه الحقائق بما يشبه الحقائق وليسَ منها في شيء.

إما أن يكون الإسلام هو الذي يسعى في سبيل إقناع الإعراض النفسانية... وإمّا أن يكون المسلمون هم الذين يتخلطون وراءَ الظنيات التي تكاد تقضي عليهم وتجعلهُم جنسًا ليس له من صفات الجنس البشري إلاّ صورة كاذبة.

والفريقان على نحو من التشاجر كأنما هم قد يرون في هذا التشاجر واجبًا من واجبات الحياة الإسلامية بل يرون فيه لباسًا يستترون به النقائص، وحجة يدافعون بها أمام محكمة الإنسانية مجلس الديانة...

بل كان الفريقان على نحو من الترقب: كل يود أن يكون صاحبه قرين الشيطان وأليف الخذلان... كل يود أن لا يكون الخير إلا إذا كان الخير حظه دون الآخر.

وبهذا أخذت أماني الإسلام تتحطم معها أماني الإنسانية وراء هذا المشي الفادح؛ وراء هذه الظنيات؛ وراء هذا اليأس الذي كان أبعد شيء من تنزلات الرحمة!

بل بهذا أصبحت التكاليف وهي تتميز من تقاليد — وأصبحت الحقائق وهي تتمثل فيما ينتجه الخيال القذر من الأباطيل والألاعيب.

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

بل بهذا أصبح الإسلام يتساءل عمّ يتساءل عنه الفرقان: عن كتاب لم يكن إلاّ داعيةً من دواعي التبرُّك؛ عنّ رسول لم يكن 'لا موضع الصراخ والتصفيق؛ عن الله هو في عرش تحيط به عفاريت من الجن؛ في ملكوت بعضه عسَلٌ وبعضه بصلٌ و بعضه ثلج وبعضه جذوة نار.

وجدير بهذه الأماني أن تتحطم ما لم يكن هناك حقائق تعترف بوجود هـذا الكمـال العقلي الذي يعبر عنه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبوجود هذا التمثيل القيم يكنى برسول أمين؛ وبوجود هذه الإرادة المسيطرة التي توصف بعرش يسع السـموات والأرض...

فإن لم يكن الإسلام على هذا المقياس السماوي وعلى هذا الوضع الإنساني؛ فما فائـدة التدين بالإسلام؟

ألسنة تتغنى بالذكر وقلوب تضطرم بالقد وتقاليد تستنكرها الأنعام والبهائم وحياة ملؤها التساقط والانحطاط، ملؤها التنازع والتحارب.

وكما ذكر بعض المفكرين: أن دعوة الإسلام كانت أبعد شيء من هذه العطية التي تقدم للجهال وتقدم للكسالى... إنها دعوة إلى الجهد الرشيد توجه إلى أصحاب الجهد الرشـيد... بل كلمة إخلاص يخاطب بها أصحاب الإخلاص إنها لثمرة فكر تعـرض علـى أصـحاب الفكر... بل كانت نهضةً من أعجب ما يكون من النهضات ينبوعها السماء والرقيب عليهـا هو الخالق الأكبر وذالك على حدّ ما قال، مخاطبًا الواسطة الأخيرة:

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤٨) المائدة

أو على حدٍّ ما قال:

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣)وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٦٤) النحل

أو على حدٍّ ما قال:

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا (٥٢) الشورى

مع أن هذه المشيئة لا تنافي قانون الاختيار... ألم يكن الإنسان وخصوصًا الإنسان المسلم مجبولاً على الاختيار؟

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) الكهف

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا (٧) الإسراء

وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢) لقمان

إن المسلم مجبور على الاختيار والإنسان حيوان مختار كما ذكر الغزالي – وذالك يقول المسلم الأول:

والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى أظهره الله أو أهلك فيه ما تركته!

الإنسان مخير بين المرحلتين: مرحلة الإدراك ومرحلة العند... ولا شك أن نسيان هذه العقيدة الجوهرية الاختيارية هو الخيانة العظمى – يقول الإنسان الأول:

لو تعلقت همة الإنسان بما وراء العرش لناله!

ويقول بعض المفكرين المغربين:

همة الإنسان قاهرة على جميع الأكوان.

فالإنسان حينئذ يقوى على أكثر من الاختيار؛ إنه يقوى على تطبيق قانون الحوالة والنقل... هذا القانون الذي يجعله يحيا في الأرض وهو في السماء مع الخالق:

أمر على الديار ديار سلمى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حبُّ من سكن الديارا

وإذا كان هذا معنى الإسلام ومعنى الدعوة الإسلامية فكيف يقبل المسلم أن يتأخر وكيف يقبل أن يكون ضحية الأكاذيب والأباطيل؟ ولو باسم الإسلام ولو باسم الخالق!

الحق إن الروح الإسلامي أعلى وأشرف من ذالك... هذا الروح الذي لم يتطلب من المسلم أن يؤمن بهذه القدرة المبدعة الجبارة... وبهذه الطاقة المدبرة الفعالة... كما لم يزل يتطلبُ منه أن ينظم سلوكه مع الكائنات تنظيماً يعود إلى نوع من التوازن في المجتمع وإلى التوازن الأكمل!

يقول علماء الغرب:

إن الإسلام ليس دينًا فحسب بل هو دين ونظام سياسي عجيب؛ وإن محمداً كان في الوقت نفسه رئيسًا للدين ورئيسًا للدولة. بل كان نبيًا في معنى رائف، من الكلمة وكان بعد سياسيًا حكيمًا...

فدعوة الإسلام لا تفسد الطبيعة ولا تذرها كالمعلقة ولا تعوِّق أبناء الطبيعة عن التطور كما زعم المتدهورون... وإذا رأى المسلم نفسه في واد من الانحطاط فذالك لأنظار وعادات ونظم يرثها عن آباء — **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا**

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ(١٠٤) المائدة

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(١٧١) البقرة

فدعوة الإسلام لا تجمّد ولا تؤخر ولا تحمل على التدهور – ألم يكن القرآن هو القائل:

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٠) النحل

أو ليس القرآن هو القائل:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا (٥٨) الأعراف

أوليس هو القائل:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦) الحج

أو ليس هو القائل تقريرًا لثبوت نواميس الكون:

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا(٤٣) الفاطر

أو ليس هو القائل إشارة إلى هذه النهضة الإنسانية التي تشترك فيها الطبائع كلها:

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٧٨) النحل

أو ليس هو القائل وفقًا للمبدأ التمثيلي:

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٢١) الذاريات

أو ليس القائل إجابة لمهجة البحث والطلب:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٩) الروم

فحبذا تكون الدعوة الإسلامية دعوة علمية، دعوة إيجابية قبل أن يكون دعوة عالمية؛ وبهذا تكون النهضة الإسلامية نهضة عقلية قبل أن يكون نهضة سياسية؛ وبهذا يكون الرأي في الإسلام رأي الاجتماع بما إذا كان الاجتماع في وسط من فهم هذه الحقائق العلمية والدينية مهما شق عليه ذالك ومهما اختلجت عليه الخواطر... مهما التطمت عليه أمواج الفكر التي هي أعظم من أمواج المحيطات كما ذكر الغزالي ... وكيف يخشى السابح الماهر غشيان الأمواج – لا سيما إذا كان الموت فيها خيرًا من الموت على فراش الجهل...بل هذا تكون الإمامة في الإسلام تتطلب العقل الوفير وتستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال بل تستدعي الحياة لحفظ الطبيعة وترتيب الجيش لحماية الثغر والقضاء على العدوان – بل تستدعي المعرفة بسياسة الرعية وتدبر المصالح الدينية والدنيوية. فتتفق المذاهب الشرعية على محاربة كل ما يؤدى الإخلال بنظام الحياة والطبيعة وعلى إكراه المتعطلين على العمل... بل تتفق المذاهب الشرعية إلى جواز معازلة الصناع والمحترّفين الذين تمالئوا على ترك الصنائع وعلى التهاون بالحرية – حتى وإن المذاهب تتفق على إجازة توفير العبادة وإبطال الصربية لحفظ المال من التنف ما دام هذا الملك يساهم في نشر هذه الدعوة القيمة وهذه النهضة السامة وهذه الإمامة القوية التي بعضها في الأرض وبعضها في السماء؟ بعضها في الملك وبعضها في الملكوت بل بعضها في الإنسان وبعضها في الرحمان أو هل الخطة إلاّ بين الإنسان والرحمان؟

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته!

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

المسلم

من هو المسلم؟ هل المسلمُ هو ذالك المتدين المحصور الذي يعيش بالأمـــاني ويتغـــذّى بالظنون؟

أم هو ذالك الإنسان المعترفُ بوجود الحقيقة الأولى والشاهد على الآيات التي تُنسَبُ إلى هذه الحقيقة؟.

"هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ" (٧٨) الحج

ويفهم من هذه الآية أن المسلم ليس هذا الوحشي الذي يتعصب لمحمد على غيره مـــن الرسل... وليس هذا العاجز الذي يتحمّل سيطرة المستعمرين في الجزائر وفي المغرب وفي البلاد العرب كلها...وليس هذا المتواضع الذي يرى في التطوعات دون الواجبات أسمى معاني الحياة البشرية.

وليس هذا الشاب الذي ينتفخ عندما يُذْكرُ الإسلام ويُذكر محمد بالسوء ؛

وليس هذا المثقف العصري الّذي يدافع عن الهويات والرياسات وعن طيّبات من الرزق.

إنّما المسلم هو تلك الصورة الحسيّة الخالدة التي نشأت وتطورت مع ذالـــك المعتـــرف وسوف يبقي معه إلى أن يسيّر الجبال وتسجّر البحار وتزوّج النفوس " إشارة إلى الآية:

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) التكوير"

هذه الصورة التي تمشي وراءها المنظمات، وتمشي وراءها الأديان، والتي يتجر بها المتجـــرون ويتغازى بها المتغازون من عهد التسوية إلى النفخ في الصور..

إنما المسلم هو تلك الحقيقة الوجدانية التي لا يهتدي إليها ولا يكشف عنها إلاّ من عقل معنى المسلك وعرف مدارك الحكمة وكان ممن يتلقى سرّ الوجود عن سبيل القطرة وعن نهج البداهة "

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا" (٥٢) الشورى

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خير كثيرا.

فإن لم تكن هنا الحقيقة الأولى فلا مسلك ولا حكمة. وإن لم يكن المسلك والحكمة فلا فطرة ولا بداهة، وإن لم تكن الفطرة والبداهة فلا مسلم ولا شيء

الله الخالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السموات والأرض

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (٥٩) الأنعام

وهذا ما يدل على أن المسلم جزء متطور بأسمى معاني التطور من الحكمة لا شريك فيها وأن حياته المزدوجة مرحلة من مراحل هذا التطور، وأن الأحكام كلها إرشادات وتوجيهات تأخذ بزمام المسلم وتصوّرُ له القيمة:

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) النساء

ولم يكن لهذه الأحكام من مصدر معيّن إلا الوحي وإلا التجريب... وكل منهما يتحقق ويتطوّر تحت رقابة الحكيم العليم:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) الحجر

وكل منهما بالنسبة له جل جلاله حقيقة إيجابية يحيا بها الكمال، وبالنسبة للمسلم حقيقة إيجارية تعود إلى الإيعاز والرمز ويتكنفها النقائص: النقصان في التعبير، والنقصان في الفهم، والنقصان في الأداء...

وتلك هي سنته في هذا الكون، ومع هذا المسلم:

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) الأحزاب

والمسلم في هذا جزء من الحكمة يتطور ويسعى إلى الغاية الكبرى: هو الأمر وهو المكلفُ بالأمر وهو صاحب الأمر:

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (٥٩) النساء

وتتفق المناطقة على أن طلاق الآية على أن الطلبنوغ من الكفر وأن الخطاب هنا معناه الجزم. كما تتفق على أن سر الحياة لا يوجد في طي هذه الآية أو في طي هذا الخطاب.

ولذالك ترى أن الأحكام تعطي للمسلم معنًى آخر، تعطي المسلم معنى الإنسان المكلف... وذالك من دون أدنى تفرقة من حيث النظر إلى المكانة ومن حيث النظر إلى الطبقة والنسب؛ حيث – أن المسلم قبل كل شيء – وحدة كونية من شأنها أن تجهل المكانة والطبقة إلاّ إذا كانت المكانة والطبقة نتيجةً لسوء الفهم أو معنى من النقصان في الفهم... " و لأن الخطاب معناه الجزم كما قال بعض المفكرين تأبى روح الشريعة إلاّ عن واجبات المسلم لا عن حقوقه؛ إذ الحقوق ملكية خالصة لوجه ذي العزة...

إنما المسلم مكلف بالحافظة على هذه الحقوق، وملزم بصيانتها مع الانتفاع بها وذالك وفق الحدود التي رسمت لها"

والمسلم إذن هو المكلف، والمكلف هو الوكيل ولذالك لا ينظر إليه كصاحب حق ولكن كمسئول أو كجزء منظور من تلك الحكمة العليا التي هي الأساس في كل شيء.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٢١٦) البقرة

ولذالك يُعبّر عن مجموعة من هذه الواجبات التي بعضها متعلق بالإيجاب وبعضها بالسلب؛ بعضها فرض على المسلم كفرد وبعضها فرض عليه كأمّة... بل بعضها خاصة بالله كالعبادة التي هي الصلة بين الفرد والرب كإرشاد روحي، وبعضها بالله أيضا ولكن فيما يتصل بمصلحة الأمة كتوجيه سياسي واجتماعي... ثم لا تصلح الثانية إلاّ بالأولى وكانت عقدة التوازن بينهما هي الأخلاق الفضلة.

نعم! بعضها فرض على الإنسان كفرد فتُسْمى من ذالك بالفردية أو العينية وبعضها عليه كأمة فتُدعى بالكفائية فيظهر من ذالك معنى الإنابة والتمثيل هذا المعنى الذي تتقابل عليه الآراء

العصريّة في غزواتها واستعماراتها والذي يحمله بعض عن بعض. يحمله أهل الحلّ والعقد عن الأمة والذي يوجد وراءه الخلاق العليم.

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(٦٢) الزمر

فمن هنا يظهر وجوب التعاضد بين أجزاء الأمة لتحصيل سلطة أو سلطات معيّنة تقوم بالأولى والأخرى:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى (٢) المائدة

وذالك لئلا يقع الجور ولئلا يقع الخداع ولا تعاونوا على الإثم والعدوان فتهلك من ذالك الأمة ويهلك معها الفرد بالحرب والكفاح أو بالإضراب والمظاهرات.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (٥٩) النساء

طاعة تستلزم الأمن في المسلم كفرد وفيه كأمة ثم لا حرب ولا كفاح ولا إضراب ولا مظاهرة:

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا(١٤١) النساء

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) الروم

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(١١٧) هود

ثم إن الواجبات في عينيّتها وكفائيّتها لم تكن إلاّ صورة من سطور هذا الجزء؛ وأن كل تطور يحتاج إلى حكم هو الروح أو هو نفس الحكمة في ذالك ولكن هناك مناقضات ومعاكسات تتحول دائمًا إلى خطر لما في نفس التعبير ولما في نفس الأداء من النقصان: هذا النقصان الذي يسير إلى أن الحياة الدنيا لم تكن بالقياس إلى جانب الحياة الأخرى إلاّ نوعًا من الخيال

وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ (٧٤) العنكبوت

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ (٤١) النحل

وإن المسلم مهما تتابعت عليه المناقضات والمعاكسات فلا يسوغ له أن يقابلها بالجرأة والتهتر:

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠) الجن

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

ولكن بالاستمرار في التطور على هذا الوجه الذي ترضاه الفطرة ويرضاه الوحي والعقل

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣٨) الشورى.

وكان من الصواب أن تحمل المناقضات والمعاكسات على أن يفكر: يفكر في الآية:

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ... فيفهم منها معنى الإدراك بالفطرة، وأن الهداية والطاعة بيد الخلاق العليم، وأن التبليغ والتبليغ وحده هو شأن الرسول، وأن القلب الذي يتلقى المعرفة هو قطعة مستقبلة من الجزء:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(٣٧) ق.

بل يفهم منها أن موافقة صاحب الأمر على تنفيذ الأمر التزام إلهي يجري من قبل الطرفين: هذا بالانقياد وذاك بالعدالة؛ هذا بالحب والاحترام وهذا بالرأفة والشفقة- حيث لا

" ولكن في إطار العمل العادي أيضا، ربما شعرنا باستنباط طبيعي(الفطرة) لا يعتمد على القضايا المنتقية ولكنه الدليل على أن فينا- كما ذكر أرسطو- شيئا من الأقنوم المقدس ".

ينافي كل ذالك أن يكون المسلم حرًّا في هذا التطور المسمى بالطاقة... على أن الحرية لا تعني الإهمال ولا التعطيل ولكنها معنىً من الاختيار الذي يعبر عنه بكلمة النية إنما الأعمال بالنيات:

كما يفهم منها أن الواجبات وأن الحرية والاختيار ليست هي نفس الغاية ولكنها وسائل موضوعة وعوارض مبعثرة في مناهج سير المسلم وفي سبيل عودة إلى الغاية:

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(١١٦) المؤمنون

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ(٣٦) الطور

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١)الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢) الملك

ثم إن الأخلاق الفاضلة هي ؟؟؟؟؟؟ التوازن في كل ذالك

نعم ! فالأخلاق الفضلة تعبر عن معنى عظيم من التوازن بين العالمين أو بين الواجبين أو هو ثالث الثلاثة!

وعلى هذه الخطة تجري مسالك الأحكام التي تمتاز بها هذه المرحلة والتي يندرج عليها هذا التطور فيبدو فيها المسلم وهو كفرد.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَمَا رَبَّيَانِي

وهناك استنباط سماوي تهتز إليه بدافع من روح القدس والذي يعود إلى نعمة الله على البشرية؛ هذا الاستنباط الذي يرفع النفوس الطاهرة المطمئنة إلى الأعمال غير العادية التي أساسها التنسك.

صَغِيرًا(٢٤)رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا(٢٥)وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(٢٧)وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا(٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(٢٩)إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(٣٠)وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا(٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا(٣٢)وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا(٣٣)وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا(٣٤)وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٣٥)وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا(٣٦)وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا(٣٧)كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا(٣٨)ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا(٣٩) الإسراء

فكما يبدو المسلم فيها وهو كفرد يبدو فيها وهو كصاحب أمر أو كأمة فتظهر فيه روح الكفائية وتتضافر عليه دواعي الإنابة وأسباب التمثيل:

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ(٢٦) ص.

وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٤٢) المائدة

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (٥٨) النساء.

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ (١٣٥) النساء

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٨) المائدة.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩)وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠)وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١) الضحى.

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨)إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا(٩) لإنسان.

بل يبدو فيها المسلم بعض الأحيان كوحدة كونية يرتكز حولها كل شيء أو كعالم أكبر يدور حوله العوالم كلها:

" ولملك تتصور تلك المسرة التي تأتي عن طريق الانقياد التام إلى تصرفات الله ذي العزة والجبروت ".

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٦٤) البقرة.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ (٧٩) النحل.

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا(٦١) الفرقان.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (٩٧) الأنعام.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(٦)وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(٧) النبأ.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣٥) النور.

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا (١٢) فصلت.

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(٧) الرحمن.

فإن لم يكن المسلم يمتاز بهذه الخطة التطورية الإيجازية فما معنى المسلم؟

وهل يقبل المسلم عندما يعتبر فردا أن يكون قرين الوحشيات؟

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا(٤٤) الفرقان،

وهل يقبل عندما يعتبر أمةً أن يقدس الفوضيات؟

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(١٢٣) الأنعام.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(٤) الحجر.

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (٣٠) البقرة.

وهل يقبل عندما يعتبر وحدة كونية أن يستهين بالآيات؟

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ (٥٩) الإسراء.

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ (٥) الشورى.

أو ليس هنا معنى من أسمى معاني الوحي والرسالة والتعليم؟

أو لم تكن حياة المسلم إلاّ جانبًا كبيرًا من هذا الوحي؛ ومن هذه الرسالة. ومن هذا التعليم؟

وهل يقتضي كل ذالك أن يكون المسلم في تقدم دائم وسعي مستمر وأن لا نقدس الحياة إلاّ بقدر ما تقدس الحياة مدارك هذا الوحي وهذه الرسالة وهذا التعليم؟

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(٤٤) المائدة.

وذالك رغم تنزلات الحوادث ورغم تعاقبات العوارض؛ هذه الحوادث وهذه العوارض التي يقابلها المسلم بنقصان من التعبير ونقصان من الفهم ونقصان من الأداء!

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

" أصبحت الفضيحة اليوم تسود العالم الإنساني- ومن واجبنا إذًا أن نتجاهل سلطتها ونعمل للقضاء عليها احتفاظًا بشخصيتنا... والوسيلة الأولى إلى ذالك هي الاعتراف بوجود الله تعالى !

فإن الله تعالى حقيقة كائنة تتصاغر دونها الحقائق كلها – فإن لم يكن الله فكيف يكون العالم؛

فالاعتراف إذًا بوجوده يفيد التغلب عن عوامل هذه الفضية؛

ويتشهد بما قاله السلف:

ما أسعد الذين يطيعون بلا أي غرض إن لم يكن غرض الإطاعة... وهذا الفضل لا يعود إلى إدارتهم ولكن إلى ذالك النور الذي يهدي من يشاء ".

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

نجابة الولد من نجابة الوالد

إنه إذا لم يكن للإنسان غنى عن دين الله عز وجل، فليس لدين الله عز وجل من غـنى عن تكوين الشخصية الإنسانية التي هي المعنى وهي الشرط الرئيسي بل هي العلة الأولى في أداء الشهادة بالمعرفة وفي تطبيق المعرفة بالعمل.

من أجل ذالك يتفق المفكرون وسائر علماء النفس على أن الفضائل والعلوم لا تكون في إطارها الحقيقي إلاّ إذا كانت مُمثلة في الإنسان. وإلاّ إذا تحلّت بها شخـصية الإنـسان في تطورها الأبدي- وإلاّ فكما قال القرآن الكريم:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (٥) الجمعة

على أن الشخصية الإنسانية تتكون مع الاسم واللقب ومن يوم الولادة فيغدو الولد وهو نتيجة العمل للوالدين: وإمّا عملا صالحا، وإما عملا غير صالح... إن كانا عاقليْن فهو عاقل، وإن كانا عالِميْن فهو بهما عالم، وإن كانا فاضليْن فهو بهما فاضل... وهذا معنى قوله (ﷺ):

" ثم أبواه يهوّدانه أو يُمجّسانه أو ينصّرانه " — ومعنى قوله تعالى:

قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا (٦) التحريم.

وإلى ذالك يشير القرآن أيضا حكاية عن نبي الله لقمان بهذا القول:

يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) لقمان.

فكأنه يشير بذالك إلى أن الولد صورة عمل الوالد وإنه في حد ما قال الغلام مجيبا لهذا السؤال الذي ألقاه عليه أمير من أمراء المؤمنين:

أنت ابن من يا ولد؟

فأجاب: ابن الأدب.

فقال الأمير:

آه!! نعم هذا النسب الذي تنسب يا ولد... ويتابع قائلا:

المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ومن حيث يثبت لا من حيث يثبت، المـــرء بفضيلته لا بفصيلته، وبحسبه لا بنسبه، وبكماله لا بجماله...

هذا هو شأن الوالدين مع الولد فكان جزاءهما أن يحسن إليهما ما دام عنده وما اكتسبا له من الإحسان يقول القرآن في ذالك:

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا (١٥) الأحقاف.

ويقول:

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣) الإسراء.

إن كان هناك حظ الإحسان...

وكان كما يقول:

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) الفتح.

وكما يقول حكاية عن خير والد وخير ولد:

يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) الصافات.

وإن لم يكن هناك حظ في الإحسان فلا إحسان! وكان كما يقول:

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا (١٥) لقمان.

هذا وإن التكوين العملي للشخصية يعتمد كل الاعتماد على الآلات الموجـــودة عنـــد الإنسان ويعتمد على الوسط بل على الرغبات التي يحاول الإنسان تخفيفها وكان كما قالـــت زوجة الرسول الثانية مولاتنا عائشة:

إن معرفة الإنسان بنفسه هي الخطوة الأولى والخطوة الحازمة إلى معرفة الإنسان بربه – فكأنها تعني بذالك أن الظواهر لا تعوق ولكنها تقود إلى البواطن فيظهر من ذالك هذا المعنى العظيم الذي يحمل الموحّدين على تسمية الإنسان بالممكن... و بالممكن الذي يمتد وينبسط إلى ما لا نهاية له، أو إلى الغيب – فتكون الشخصية وهي هذه الغاية المشتركة التي تهدف إليها وسائل الحكم،

النفسانية منها والاجتماعية، والتي تعد لها العدة عندما تقع وتتوارد عليها الحوادث...هذه الغاية التي تجعل زوجة الرسول الأولى مولاتنا خديجة تقول لمحمد ﷺ: إنك لتصل الرحم وتقري الضيف. والتي يقول القرآن من أجلها مخاطبًا محمدًا ﷺ:

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) القلم

هذا الخلق الذي يمكّن محمدا ﷺ من أن يكون إنسانا محمودا في كل شيء؛ محمودًا أن يكون شجاعا في الحرب، عادلاً في الحكم والقضاء؛ شقيقا في الصحة؛ ماهرا في القيادة؛ بصيرا في الإرشاد، حكيما في الحياة، مخلصا في الدين؛ محسنا في العمل؛ سخيا في الإنفاق؛ ذكيا في التوجيه؛ إنسانا محمودا في كل شيء محمود !.

أو ليس هذا معنى من أسمى معاني التضحية والشجاعة؟

إنسان يحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن فعل المذموم، إلى أن بلغت به الهمة أقصى درجات الرقي والإنساني... إلى أن تكاملت فيه الأخلاق الفاضلة إل أن تطوّعتْ له الشخصية المطهرة والتي تصور في الكتب الغيبية بأحسن ما يكون من التصوير...

ثم لم ينشبْ أن يضحّي بهذه الشخصية في سبيل إرضاء الغيب الذي يخاطب محمدا بهذه الكلفة المودة فيقول:

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (١١٠) الكهف.

وهذا لتبقى الشخصية المحمدية بعيدة عن تلك الشخصيات العليلة التي تفسُد بالإصـــلاح... فكان محمدٌ وهو ليس بشاعر عرضة لهم يتربصون به ريبَ المنون، وليس بساحر مجنـــون ولا بمتعلم سفيه ولا بمعلم ناقص ولا بمتكبر جبار...

بل إنما هو إنسان يحاول أن يقنع شخصيته بخير ما يتلقاه الإنسان من المبادئ السامية التي لم يكن من طاقة العقل ولا من استطاعة المنطق أن يجهل أو يتجاهل حقائقها الملموسة وهـــذه شخصية محمد ﷺ ترقى مرة إلى تلك الذُرْوة السامية ثم تهبط مرات أخرى لكيلا تقع ضـــحيّة الاستكبار والتجبر – ولكيلا تنسى أن الحياة في لأرض لهوٌ ولعبٌ وزينة وتفاخر بين النـــاس وتكاثر بالأموال والأولاد ... وأنها بمستقر ومستودع وأنها مع ذالك بلاء من الله عظـــيم ... وأن الخير والخير كله في اتصال هذه الشخصية بالغيب، لا لتحصر مصالحها في أكلة أو شربة ولا في قطعة من نزهة أو زينة...

وهذا محمد ﷺ يقول في ذالك:

من أصبح وهمّه الدنيا فليس من الله في شيء. ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم ومن رضي الذلة من نفسه طائعًا غير مكره فليس منّا.

بل يقول في ذالك عندما يوصي معاذ بْن جبل:

" يا معاذ أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث والوفاء بالعهد، وأداء الأمانـــة، وتـــرك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام،وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والنفقة في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وحفظ الجناح...

وأنهاك أن تسبّ حكيمًا من الحكماء أو تكذّب صادقا أو آثما، أو تعصي إماما عادلاً، أو تفسد أرضًا، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجرٍ وشجر ومدر وأن تحْدث لكل ذنب توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية".

هذا هو الإسلام، يحرص أشد الحرص على أن يحقّق في الإنسان العادي الإنسان الحقيقي وفي شخص الإنسان الشخصيّة الإنسانيّة ويختار في ذالك سبيل العلم والمعرفة ثم سبيل الشهادة والعمل لئلا تختلط الفضيلة بالرذيلة أو لئلا تدعى الرذيلة بالفضيلة بل لئلا يُصبحَ الإنسانُ صريع الأمراض المعنوية التي تحطّ كبرء العالم هوّة التساقط فيحسدون وهم أغنياء، ويكذبون وهم حكماء ويظلمون وهم أقوياء ويخلعون وهم شرفاء.

كما يختار في ذالك السبيل الوسط الذي يُعطى لكل من الحياتين الدنيوية والأخروية بما لها من الحقوق... وذالك من دون إفراط ولا تفريط؛ وذالك لتطور هذه الشخصية في جوّ من التوازن ولو في ساحة الحرب ولو في ساحة الحرب ولو مع تقلبات الذين كفروا في البلاد؛ هذا التوازن الذي يُعيّنه القرآن تارة بالصبر – فيقول:

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ(١٢٧) النحل.

وتارة بالتوكل والإيمان، فيقول:

الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤) آل عمران

وتارة بالتفكر – فيقول:

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ (١٩١) آل عمران

وتارة بالتذكر، فيقول حضرة الغيب على لسان شاعرٍ في قطعة من الشعر:

تـــذكر جميلـــي فيـــك إذ كنـــت نطفـــةً
ولا تـــنس تـــصويري لشخـــصك في الحـــش
وســـلم لي الأشـــياء واعلـــم بـــأنني
صـــرف أحكـــامي وأفعـــل مـــا أشـــا

أو كما يجيب حاتم الأصم عندما سئل من أين تحصل على هذه النعم ومن أين تأكـل فيقول:

وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧) المنافقون

فتصير الحياة حينئذ أمام الشخصية لا كارثة من الكوارث كما أقرّ بعض الثائرين بـل جهاداً في سبيل حل المشاكل وفي إرجاع القيمة إلى الوسائل الإيجابية – يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩) العنكبوت.

وإلاّ فالحية رهينة الأباطيل ووديعة بين أيدي مجانين! وإلاّ فالشخصية ليست إلاّ كطيف من الخيال – وكان كما يقول القرآن الكريم:

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (٤) المنافقون.

أو كما يقول الشاعر:

جعلوا لأبناء الرسول علامةً

إنَّ علامة شأن من لم يشهر

نور النّبوة في كريم وجوههم

يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وعلى هذا يعبر الإنسان في الإسلام عند تكوين شخصيته المحترمة – لا كمجموعة يتشابك بعضها ببعض ولكن كأقنوم مستقل يفعل الحركات والأعمال ويمتد بالحركات والأعمال إلى الأقنوم الأصلي الذي لا يسع للمنطق أن يعينه بالاسم بل بالصفة؛ خاصة لا ثاني له فيها... وكان وجود هذا الأقنوم وبقاؤه وغناه يخالف كثيرا وبلا حدّ وجود غيره من الأقانيم وبقاءها... وغناها وكل ذالك لكي لا تصطدم سلطة بسلطة ولكي لا تحتك إرادة بإرادة – يقول القرآن الكريم في ذالك:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) لأنبياء.

ويقول المفكر الغربي والفيلسوف المسيحي "La Crais" تعليقًا على هذه الآية:

ومن هذا نؤمن بوجود الله ووحدانيته تعالى... وجدير به أن يكون وإلاّ فلا معنى للحياة ولا للكون، ويتابع قائلاً: " فإن الإيمان بذالك رفض للفضيحة واحتفاظ بالحرية"...

وهكذا شخصية الإنسان في الإسلام تتمتع بهذا الاستقلال الكامل، وبهذه الحرية الكاملة التي لم يكن دونها للاختيار من قيمة والتي يقول القرآن الكريم من أجلها:

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) الكهف

ويقول:

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) النجم

ويقول:

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (١٥) الإسراء.

بل يقول محمد صلى الله عليه وسلم من أجلها وإظهارا لهذا المعنى الاختياري:

" لا ذنب بعد الكفر"

بهذا تتحقق الإنسانية في لإنسان... يأنس قبل كل شيء بالضمير الذي هو الواسطة بينه وبين الغيب. ويأنس بعد ذالك في الوسط فوق كل شيء بما حوله من عجائب الطبيعة...

وهل يبقى سعة الإنسان من بعدُ في توسيخ الأرض بالظالم؟ وفي تضييق الصدر بالشحناء؟ وفي إغراء النفس بالثورة؟!...

وإلاّ فهو حمار بوجه إنسان... وما أخسر حمارًا بوجه إنسان!

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

((التطور))

كنا من قبل نناقش الأساتذة ونباحث الكبراء؛ كنا ولم نزل نناقش البعض ونباحث بعضا آخر... وكانت كل هذه المناقشات وكل هذه المباحثات تدور حول كلمة "التطور" وكانوا حينئذ لا يفهمون من كلمة التطور إلا معنى الإلحاد والزندقة وإلا معنى الفسوق والذبذبة...

كنا نرى دائماً في المعرفة ما نرى فيها من مصلحة ومصلحة كبرى للحياة البشرية... ولكن كنا نرى فوقها أيضا أن التطبيق هو روح المعرفة وأن التطور هو حقيقة من الحقائق التي تستولي على الإنسان وعلى المجتمع بل هو قانون من القوانين الطبيعية التي لا يمكن للإنسان ولا للمجتمع أن يطغى عليها:

وتلك الأيام نداولها بين الناس:

أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد

والآن أخذت الأساتذة وأخذ الكبراء تتوحش في عزلتها إما عجزًا وكسلاً وإما تؤخذ في رحلتها إلى دار الخلد؛ يا سبحان الله!

ولم يبق للخلف بل لم يبق للإسلام العصري إلا أن يُواجه المشاكل التي ستعرض لنا أو التي يتعرض لها... إلاّ أن يواجهها بعقيدة وشجاعة... إلاّ أن يواجهها بروح المخاطرة؛ حيث أن التطور لا يعني انقياد الشباب إلى النظم الجديدة إلى كل النظم والتطبيقات الجديدة... إنما التطور بسطة في العلم وبسطة في الجسم: وبسطة في العلم والجسم معًا؛ هذا للثقافة الفكرية وذاك للرياضة الجسمية من دون إفراط ولا تفريط. واتخذوا بين ذالك سبيلا – ولا فضيلة إلا في التوسط!

التطور هو:

✓ أولاً تقديس المبادئ السماوية التي تتطلب منا الاستمرار في العمل والتي لم يكن ليضعها إلاّ أحكم الحاكمين.

- ✓ وثانيا استثمار الآيات التي نراها في الآفاق وفي أنفسنا - **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) فصلت**
- ✓ وثالثا أن نأكل من طيبات ما رزقنا الله — **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (١٦٠) لأعراف**
- ✓ وأن نرعى الأنعم — **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ (٥٤) طه**
- ✓ وأن نعمر الأرض بالنبات — **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ (١٠) لأعرف**
- ✓ وأن نحمي المجتمع بالخلق: (فسعوهم بالأخلاق) وأما بالحديد والنار الحديد — **سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ (٨١) النحل...**

وما معنى كلمة التطور إن لم يكن هذا الترقي وهذا التدرج الذي يجعل النفس الإنسانية وهي تنتزع من نقائص المجتمعات وتجعلها وهي تنجذب من أقذار الحضارات؛ هذا الترقي وهذا التدرج الذي يسميه لسان التربية: بطلب الكمال حيث أن طلب الكمال صفة من صفات الرقي الإنساني ولازم من لوازم تركيبه الروحاني والجسماني... ثم لا تتجلى الآيات ولا يحصل الاطمئنان واليقين إلاّ عن هذا الطريق - **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي (٣٧) الأنبياء!**

وشتان ما بين طلب الكمال وتنازع الحياة إلاّ أنهما فضيلتان طبيعيتان؛ ولكنهما لعالمين مختلفين.

أما فضل كلب الكمال فهي فضيلة العالم الإنساني لأنها تلائم سموّ فطرته وتوافق جوهر عنصره.

وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره لأهم عائشون بهذا الدستور وهذا بالنسبة لهم طبيعية مقيّمة لحياهم ولا يصحّ أن نعبّر عنها برذيلة إلاّ بإضافتها للنوع الإنساني لأها لا تليق به ولا تؤدي به إلى غايته إلى خلق من أجلها.

فكانت الأولى كما قال ذو العزة في القرآن الكريم:

فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ (١٤٨) آل عمران

وكانت الثانية كما قال:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(١٥) هود

إلى هذا يهدف التطور الإسلامي بل إلى هذا تهدف الرسالة المحمدية؛ هذه الرسالة التي نجحت في هذا المناهج نجاحا باهرا وجعلت هاتين القوّتين القوة الفكرية والقوة الجسمية لا تتصل الأولى إلاّ بالآخرة اتصالاً حيويا؛ بل جعلتهما لا يتعاضدان إلاّ بعضها ببعض وتجد كلٌّ منهما في الأخرى ما يكفيها من الموادّ الغذائية التي تكسبها الحياة.

لا كما ترى في الأندية الثقافية المتحضرة التي تزود بالخلاعة والجنون أكثر مما تتزوّد بنتيجة العلم – ولا كما ترى في المساجد التي يبقي المصلون فيها وهم ما بين ناعس يستعجل الإمام ومصغ لا يستحضر الكلمات ومداعب يتخطّى الجماعة وهو لا يبالي بما إذا كان البيت بيت الله أو بيت العزّى...

إلى هذه تهدي هذه الرسالة القيمة التي كانت مقدمة لعصر العلم وطليعة لدولة الحق وأساسًا لسلطان الحكمة فقرّرت الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه الغرب بعدها بثلاثة عشر قرنًا والذي يقال في حقه:" لا يبقى إلاّ الأصلح" وما معنى هذا التعبير حذاء الوصي السماوي الذي يقول: فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض!

وإلى هذا يهدف القرآن وتهدف رسالة محمد ﷺ ولمثل هذا فليعمل العاملون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

فلسفة العمل في الإسلام

إن للعمل لَروحًا قوية في الإسلام وإن له في الرسالة المحمدية لَفلسفةً عجيبةً روحًا وفلسفة تستمدان من الإرادة، ومن الإرادة الغيبية التي تخاطب لأشياء وتخاطب كلّ شيء بهذه الكلمة الإجبارية: " كن." ! فيكون" ذالك الشيء!!

وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(١١٧) البقرة

قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٤٧) آل عمران

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٥٩) آل عمران

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٤٠) النحل

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٣٥) مريم

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) يس

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٦٨) غافر.

ولأن العمل لا يكون إلا بالاستطلاع ولأن الاستطلاع لا يكون إلا بالمثابرة على الاكتشاف والاحتكاك بالحوادث أوجب الغيبُ على نفسه أن يسدد خط الإنسان في سبيل هذه المثابرة وفي منهج هذا الاحتكاك..

ثم لا حظَّ إذًا للإنسان خارج هذا وذاك إن لم يكن خط الخُسران – وذالك كما قال القرآن الكريم:

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

وَالْعَصْرِ(١)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣) العصر

وكما قال برواية نبويّة:

الناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم.

وذالك في الإيجاب والسَّلْبِ، وذالك في الكسب والإهمال.

لأن الإيجاب والسلب والإهمال قوتان متنازعان إلى أقصى غايات التنازع وذالك لتبقى الحياة مستمرة خالدة بمضادَّة بعضها بعضا... ولتقد هذه التوتُّرات التي تنجذب بانجذابها لوالبُ الحياة وتندمج باندماجها عجلات الكون...

وما أحسن قول الشاعر حينما يشير إلى أن رسول الإسلام هو الروح القيمة في هاتين القوتين المتجاذبتين:

إن قلت في المر لا أو قلت فيه نعم

فخيرة الله في " لا " منك أو "نعم"

ولا حظَّ للعمل خارج هذا الإطار الإيجابي والسلبي وذالك الروحانيات والماديات...

وذالك ما دامت الحياة تتحكم بقانون الازدواج؛ هذا القانون الذي يشير إليه القرآن الكريم بهذه العبارة القدسية:

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) يس

وما دامت القوة تستوهب من تلك العناصر الأربعة التي لا تشكل الـشهادة إلا منـها والتي تبقى السبب الأول والأداة الوحيدة في تنظيم الحياة والمدنية؛ هذه العناصر التي ترجع إلى الماء والهواء والنار والتراب!

وهل الحياة الأرضية خرج الاعتراف بالإرادة الغيبية إلاّ قبضة من تراب؟

يقول في ذالك سبحانه:

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْـفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٥)ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦)الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ(٧)ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُـلَالَةٍ مِـنْ مَـاءٍ مَهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ (٩) السجدة

ويقول:

عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٣) سبا

ويقول:

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(٢٦)إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُـولٍ (٢٧) الجن

هذه العناصر التي لا تتحقق العمليات إلا إذا كانت مطبقة عليها وإلاّ إذا كـن هـذا التطبيق داعية من دواعي الإغناء والسعادة...

بهذا يكون العمل كوارث طبيعي للعلم وتكون الحياة معه معنى من الاعتـراف والإيمان بالغيب... وبهذا يجهل الإنسان في العمل فضيحة لاستعباد وشر الاستغلال فيقول:

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ(٤٦)وَإِنَّهُمْ عِنْـدَنَا لَمِـنْ الْمُـصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ(٤٧) ص

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) فاطر

بل بهذا يظهر للإنسان أن الأوامر والنواهي لم تكن إلى جانب الزرع وأنها سر التوازن في هذه النفسيّة التي لا تقوم لها قائمة التربية إلاّ بالتوازن...

هذا وبما أنّ المشقات التي تنفّر الإنسان من واجبات العمل ليست إلاّ من المصطلحات والعادات التي لا تغني عن العمل شيئا.

فيقول:

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ (١٨٥) البقرة.

ويقول:

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٢٨٦) البقرة

ويقول:

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (٧٨) الحجر.

وإذا لم يكن العملُ عبارةً عن الحرية وإشارةً إلى نوع من الكرامة؛ فما هناك إلاّ الجهل، وما هناك إلاّ التباب... ولذالك يقول:

لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ(٦٥) الزمر

ويقول:

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(١١٠) الكهف

ويقول في بدّع ما يكون من عبارة:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(١٠)أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ(١١)وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣)سبا

تلك هي مجاري هذه العناصر التي تحيط بالشهادة وتحيط بالإنسان... ويقول إشارة إلى شكلها الترابي:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) الروم

ويقول:

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا(٧) الكهف

ويقول:

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) الحج

وكما يقول إشارة إلى العنصر المائي:

وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٣٠) الأنبياء

ويقول:

وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (١٦٤) البقرة

كما يقول مشيرًا إلى العنصر الهوائي:

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ (٧٩) النحل

ويقول في حق نبيه الملك سليمان بن داوود:

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ(٣٦) ص

إن العبارات الموجودة في الكتب المقدّسة لا تُعيّن الحقائق إلا بِقَدَرِ ما تُرافق هذه الحقائقُ تطوّرَ العقل البشري، وإلاّ بقدر ما تنتظم مع مقتضيات المفاهيم التي تساير هذا التطور حيث أن الكتب لا تنـزل بلغة الغيب ؛ إنما تنـزل بلغات الأمم ووفق الأدوات المنطقيّة والحِواريّة التي تستعين بها هذه الأمم على تحليل الغوامض التعبيريّة وعلى تطبيقها وذالك في سبيل بناء المجتمع وفي سبيل الإحتفاظ بالمصالح.. بل وفي سبيل تعقُّل الآيات والرّموز التي لا تتصل الشهادة بالغيب إلاّ بواسطتها فيقول:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) فصلت

وسواء في ذالك ما جاءت به التوراة في عبرانيّتها وما جاء به الزبور في سَريانيّته وما جاء به الإنجيل في أعجميته الآرامية وما جاء به القرآن في عربيته...

ليبقى كلام الله هذا المعنى القائم باليقين والذي هو مدلول العبارات الموجودة في هذه الكتب ؛ فيقول:

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ(١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(١٩٥)وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١٩٦) الشعراء

وهذا بما كانت عليه الأمم من التفاوت في الفهم ومن التخالف في التعبير عن الغرض وفي تحقيقه فيقول:

قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ (١٣٥) الأنعام

يقول:

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٣٢) الأنعام

وتنقسم العمليّات إلى ما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمل به الجوارح. وهذا لتتحقق الوحدة بين أجزائها ولو تنوعت العقول ولو تفاوتت المراتب.. وهذا لرفع الإنسان إلى مستوى رسالته الإنسانية وبرفع المجتمع إلى مستوى المصالح الدنيوية والأخروية... وهذا الإطلاق للشكر هو الأساس في كل ذالك والذي يقول:

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ (١١) لقمان

وهذا ليتخلص الإنسان من براثن العادات وليعلم أن الحرية المطلقة لا توجد إلاّ وراء هذا الهدف الذي هو الاعتراف بالغيب وأنّ ما يُعْبَدُ من دون الله فحصب جهنّم... وليعتقد فوق ذالك أن كل ما يشبه الاستعباد ليس من جنس هذا العمل الذي لا يعرف الذل ولا يعرف الاستكانة ولا يعرف الخشية ولا يعرف الانزعاج ولا يعرف إلاّ التفوق والمروءة بل لا يعرف إلا إغراق الحوادث في بحر العمليات المفيدة ولا يعرف إلا مقابلة التساقط البشرية باختراعات عجيبة وصناعات بديهة وتخلّيات راقية وتحليات قيّمة وتجليات بهيجة..

هذا لتبقى همة الإنسان مثلا وأعلى مثل في تسخير الطبيعة واستخدامها رغم الثَّوْرَات ورغم التَّوَتُّرات – وكان كما قال:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٧) النحل

وهذا لتكون الكرامات مَصُونة في الإنسان ولتكون الحقوق محفوظة في حياته بـك وليكون هذا الإنسان سيِّد الخلائق في الأرض وموضع الاحترام لذالك الملأ الأعلى...

وهذا ما دامت الكرامات هي الكرامات وما دامت الحقوق هي الحقوق وإلا فكما قال الشاعر:

لـــئن كنـــتُ إلى الحلْـــم إنـــني
إلى الجهـــل في بعـــض الأحـــايين أحـــوج

ولي فـــرس للخـــير بـــالخير ملجَـــمْ
ولي فـــرس للـــشر بالـــشر مـــسْرجُ

فمـــن شـــاء تَقْـــويمي فـــإني مقـــوَّم
ومـــن شـــاء تعـــويجي فـــإني معـــوَّج

ومـــا كنـــتُ ارضَـــى الجهـــلَ جـــدًّا ولا أبـــا
ولكـــنني أرضـــى بـــه حـــين أخـــرَج

ومهما يكن من أمر... فإن العطالة هي أم الجرائم وإنها الكفران بهذه النعمة العظمـــى التي تتطلبُ مساهمة الإنسان في تنسيق الأشياء في إصلاح الحرث والنسل... وتتطلّـــبُ منـــه الترفّع عن السّفاسف والمحتقرات ليكون بينهُ وبين الغيب عهد وميثاق وليكون بينه وبين الغيب اتفاقيّات معنوية وخلقيّة ومادّيّة وليكون العمل عنده غريزة من أطيب الغرائز الموجودة في نفس الإنسان – وليسلم من وبال الطرد وليتخلص من هذا الخذلان الذي يأتي بعد الإنذار ويـــأتي بعد هذا القول العجيب الذي أدْلَى به القرآن الكريم عندما يخاطب المتعطلين:

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِـــكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٩)وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِـــي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ(١٠)ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَـــانٌ فَقَـــالَ لَهَـــا

وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢) فصلت

إن العطلة هي التي تحوّل الخير إلى الشر: تحوّل الذّكر الطيب إلى الغيبة وتحوّل الشورى إلى النجوى وتحوّل المعاملة الحسنة إلى المخادعة وتحوّل التّزاوُر إلى التخالع وتحوّل النصيحة إلى الاستغلال وتحوّل التساؤل إلى التجسس وتحوّل المؤاخاة إلى المحاقدة وتحوّل الكفاءة إلى النّزاع. وتحول العبادة إلى الإبادة بل وبعبارة أعم نحو الإنسان إلى شيطان.

ولذا يقول رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم إن المهلكات ثلاث:

١) الفراغ الدائم

٢) والهوى المتبع

٣) والشُّح المطاع، ويقول:

لأن يعمل الرجل بيده خير من أن يعيش عائلا على الناس... ثم يذكر قول الله عز وجل في حق داوود عليه السلام:

اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا (١٣) سبا

ويقول اليد العليا خير من اليد السفلى ويقول بعض الصحابة:

لو كان خَلَلُ هذا في سبيل الله!

فهذه هي روح العمل في الإسلام وهذه هي فلسفة الرسالة المحمدية...

ولا أظن أن في الحضارات والمدنيات ما هو أولى بالإعجاب من هذه المبادئ القيمة التي خلفها الإسلام وخلفها رسول الإسلام لا للمسلمين فحسبُ ولكن للخلق كافة، يقول:

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا (٢٨) سبأ

ويقول:

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (٩) الإسراء

وما أشد ضلال المنكرين والمترددين.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

بين الروح والمادة

طفق تطوّر الفكر المادّي يلقي مدهشة على الزعماء الروحانيين: هل هناك معنى للتطور المادي لانقضاء الدور الذي كان يجب على الدين أن يلعبه؟

أليس معنى ذالك احتياج هذا الفكر إلى تطبيق مبادئه على الأمور الدينية؟

أليس كلٌّ من ذا وذاك إلاّ إشارة بأن الروح دخلت في عهد الشيخوخة والهرم، ولم يبق لها الآن إلاّ أن تسلم الإمارة إلى أيدي المادّيين؟

وذالك كما في قوله تعالى:

"وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" (١٤٠) آل عمران

بل وبين الحقائق والأشياء؟

كل هذه الأسئلة تتوارد على المفكّرين: عل المتديّنين منهم وعلى الملحدين على الحكماء منهم وعلى الشعراء...

فتضرُّ الأجوبة إلى إلقاء أسئلة أخرى:

هل الإنسان مسلم إلى أفكاره، وآرائه المتضافرة أم هو موجهٌ توجيهًا غيبيًّا؟

وهل هناك إمكان تعايش سلمي بين الروحيّة والمادية؟

أليس هناك من حرب باطنية أو ظاهرية بين الضدين؟

إن الإسلام لم يزل يذكر بأن في هذه المرحلة التي هي إحدى مراحل الحياة البشرية عناصرَ مختلفة يحتاج بعضُها إلى الاعتماد على بعض، بل يتعاون بعضُها ببعض ويتكفّل به روح تقوى بخلق وخلق يستفيد من مادة ومادة تسعى في سبيل الإغناء لكل هذا ومن ذاك – لتكون الحياة في الأرض، أو ليكون الإنسان فيها عبارةً عن إرادة تكوينية، وإدارة تعليمية؛ روحٌ ترتبط بأسباب السعادة وخلق ينطوي في طرفه على العزة، ومادّة تزدهر في ظل العفاف! فيكون

الإنسان شخصًا بثلاثة أشخاص – كلّ شخص منهم يلعب دورًا مهمًا عندما تتحد مقتضيات هذه العناصر وتتميز خصائصها ويقول هذا التوجيه بلسان عربي مبين:

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(٥٠) طه

ويقول:

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(١)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(٢)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣)وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(٤)فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى(٥) الأعلى

ويقول:

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ (٦٨) قصص

ويقول:

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦) آل عمران

والحكيم البهي يُعلق على هذه الآيات فيقول:

" ليس الإسلام معاديًا للعلم ولا للتجربة الحسية الآلية التي يقوم عليها، وليس معاديًا للصناعة ولا للتطور الصناعي. إنه يدفعُ إلى الأمرين معًا " نعم! وكيف لا يدفعُ الإسلامُ إلى هذين الأمرَيْن معًا وهو لم يزل يعترف بأنَّ الجزئيات تحتاج إلى كل الاحتياج إلى كليّة تأوي إليها في سبيل إرْتيادها للوحْدَة الإلهية... بلْ لم يزل الإسلام يُفسر المجتمع بروح التعاون التي تداعى من أجلها الحقائق، لأن المجتمع بلا تعاون ليس بمجتمع – ولن التعاون لا يُفْهم إلاّ عن طريق البرّ والتقوى، لا عن طريق الإثم والعدوان، ولا عن طريق تعدد الآلهة الذي يجعل الشيطان ويجعل الهوى ويجعل الطمع آلهة مستقلاً بعضها عن بعض – والإنسان بينهم في أسوأ حال من ذبذبة أو من إشراك... فإن الشرك أخف من دبيب النّمل أو من دبيب الذرّ على الصفا الملساء في الليلة الظلماء".

وهذا الحكيم البهي يقول في ذالك:

" إن المعرفة الناشئة عن استخدام المقاييس الآلية والعمليات الرياضيَّة البحتة هي التي أخذت مفهوم " العلم " في الوقت المعاصر وهي التي تدعو إليها الفلسفة الواقعة، والفلسفة المادّية، على أنها الشيء الذي يجب أن يؤمن به الإنسان المُعاصِرُ، ويتخذَه إلهَهُ بدلاً من إله الأديان في الماضي. ولذالك يَصِحُّ أن يقال: إن الفلسفة المعاصرة هي فلسفة العلم وفلسفة الدعوة إلى مُقتضيات العلم... ولهذا يبقى الإسلام متميزًا بنظامه وبدعوته إلى الإيمان بالله قبل كل شيء "، نعَمْ ويبقى الإسلام دليلاً على أن هذه المرحلة في الأرض ليست إلاّ إحدى مراحل الحياة، هذه المراحل التي تعد بالألوف وتعد بالملايين، لا لشيء وحياة الإنسان فيها حياة معرفة بجهالة: حياة فطرية بعقلية، يقول التوجيه الغيبي في ذالك:

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(٨٥) الإسراء

ويقول معه الشاعر، وإن من الشعر لحكمة:

فيكِ يا أعجوبة الكو ن غدا الفكرُ قليلا
أنتِ حيرتِ ذوي اللب ب وبَلْبَلْتِ العقولا
كلما أقدم فكري فيكِ شبرًا فرَّ ميلا
ناكصًا يخبط في عم ياء لا يهدي السبيلا

وإلاّ فالإنسان مسلم إلى أفكاره المضلّة وإلى هوّياته المعطلة: ينطق باسم الاشتراكية ولم تكن اشتراكيته حينئذ إلاّ شيئًا من خيال: ويسعى باسم الرأسمالية عندما تغدو رأسماليته نوعًا من وبال واستغلال؛ ويعمل باسم الروحانية عندما لا تتجلّى هذه الروحانية إلا في سماء الخزعبلات والتقاليد..

فإذا اختلّ الروحانيون وأخل الماديون معًا بهذا النظام الحكيم الذي يتمشى عليه التوجيه الغيبي، فليس هنا إلا حرب باطنية أو ظاهرية بين العناصر بين المنظمات وبين الأمم؛ وليس هناك إلاّ حياةٌ لا رجاء فيها لطمأنة النفس والإسعاد الروح -- لاسيما والتوجيه الغيبي يقول بكل روعة وإعجاب:

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠) القصص

ويقول:

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى(٣٢) النجم

ويقول:

وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) الكهف

ويقول:

عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى(٥٢) طه

هكذا الإسلام يأبى لمجتمعه أي هدف من الأهداف إن لم يكن هدفَ الوحدة في الإيمان بالله جلّ جلاله؛ في الإيمان بالتوجيه الغيبي؛ في الإيمان بنتيجة العلم ما دام أساسه العلم؛ ويقول في ذالك مخاطبًا أبناء هذا المجتمع:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(١٣٦) النساء

بهذا يكون العمل نوعًا من التصور الواقعي الذي يُلحق الشهادة بالغيب ويُرجع الفرع إلى الأصل، بل الذي يعتبر تلك الصفات الكامنة كأخوات لهذه الصفات الظاهرة – فيقـــول تحديدًا لهذا العمل أو لهذا التكليف:

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا(١١٢) طه

ويقول:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ (٩٤) الأنبياء

ويقول:

فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٥) الأعراف

ويقول:

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَـــالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥) التوبة

ولو تضافرت العقبات، ولو توفرت الحوادث في هذه المرحلة من حياة الإنـــسان، لأن الوقوف على هذه الحدود يشير إلى أنّ هناك إرادة قوية أبدية تستلزم إرادة وقوة أخرى ما دام الإنسان في طريق العمل أو في طريق حياته إلى الغيب " **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)** هود ، (٢) الملك

وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٣٥)الأنبياء

بل يشير إلى أن هناك العلميّ الذي لا يكون العمل إلاّ بمقتضياته، بل يقـــرّر أن هـــذه اللزومية يجرُّ ذيلها على كل فرد من أفراد الأمة المحمدية مسلمًا كان أو مسلمة. ويحدّدُ لها بداية وغاية: فالبداية هي المهد والغاية هي اللحد ولا عطلة إذًا للجانبين إن لم يكن عطلة المنافـــسة والحوار، حياة تجري كلها بين حيطان المدرسة، والمدرسة هو الكون، والمدرس هو التوجيـــه

الغيبي، والطالب هو الإنسان المسلم والدور هي المشاكل بأجمعها علويّتها وأسفليتها، أخرويّتها ودنيويّتها روحيتها وماديتها، ولا بطالة إذًا إلا للجانبين، وللجانبين في ذالك حق الاحتفاظ والرعاية وحق المساهمة الدائمة المستمرة.

والدعوة إلى هذه الوحدة هي رسالة الإسلام؛ وحدة في العلم ولو تعددت الوسائل؛ ووحدةٌ في العمل ولو تنوعت الأساليب؛ ووحدة في التفكير ولو تحاجت الحريّة إلى المناقشة والحوار؛ ووحدة في اكتشاف الأعجوبة الكونية ولو اختلفت العناصر...ووحدة في الأخوة ولو تشعّبتِ الأجناس. وإلا فهو القضاء على الزوجية التي هي سرُّ الحياة الدنيا، سرُّ عالَم المحسوسات التي من أجلها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأعجب ما يكون من عدالة " إنَّ مثَلي ومثَلَ الأنبياء كمثل رجل بنى بُنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَةٍ من زاوية من زواياه فجعل الناسُ يطوفون ويتعجبون له ويقولون هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللبنةُ؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين..."

وأما هذه الوحدة ينبغي للروحانيين والماديين وللرجال كلهم أن يقولوا معًا:

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا (١٩٣) آل عمران

ليكون الشرُّ معنًى من الخير، ولتكون الحرب نوعاً من السلام وليبقى اللهُ إله الكون وفاطر السموات والأرض إلى أنْ يساق أهل العمل إلى " **مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**(٥٥) " القمر

ثم لا زَلَّةَ بعد التوبة:

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥٤) الأنعام

ولا نجاة بعد الإنكار:

وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

(١٥٤) آل عمران

بل لا حكم إذًا إلا لله:

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ
كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧) الأنبياء

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩) النحل

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

مفهوم الإسلام

إن مفهوم الإسلام لا يعني توقف التربية الإسلامية على الشعائر... كما لا يعني ترديد الصوت بالأراجيز، ولا إحاطة الصدر بالسبحة، ولا إعلاء الرأس بالعمامة، ولا إشباع الحلقوم بالنحشات.

ولكن مفهوم الإسلام نوعًا أسمى من كل نوع في حياة الإنسان في المجتمع الأرضي – يقول القرآن الكريم في هذا المعنى النادر:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

(٣) المائدة

ويقول:

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٥)
آل عمران

ويقول:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (١٩) آل عمران

ويقول:

فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ"(١٢٥) الأنعام

ولكن مفهوم الإسلام ينبوع بل هو أطيب كل ينبوع، تنبجس منه العلوم والمعارف التي من حظ الإنسان أن يستعين بها على تكوين شخصيته وعلى تنظيم هذه الشخصية وفق ترتب الحوادث وتتابع الشوارد، ووفق طغيان المشاكل على الإنسان وعلى المجتمع... هذه المشاكل التي إذا لم تُكتنف بالالآهيات فلا شك إنها تستعبد الإنسان وتقضي على كيان المجتمع...

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

ولكن مفهوم الإسلام عقيدة ومعرفة وتطبيق... وهذا يتطلّب أن يكون الإنسان وهو مواطناً سماوياً لا تمر عليه دقيقة من دقائق الساعة إلا ويدعو فيها صوت من أصوات الخفيّة التي لا يستمع إليها الإنسان إلا بواسطة أذن من الآذان الخفيّة لا بواسطة الشعائر يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ(١٢) الحاقة

ويقول:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة

وكانت هذه الصورة التي يعطيها مفهوم الإسلام للإنسان كمواطن سماوي لا تخرج عن حد تلك الصورة التي ترى في محمد ﷺ المحارب الأول في جنسه والمشرّع الكامل في أمته والقياسي الماهر في رهطه والخطيب البليغ في جالسيه والصادق الأمين في وطنه والعاقل اللبيب في جماعته والحاكم العدل في ولايته والأب الشفيق في أسرته والرفيق البر في كنفه والشجاع المطمئن في شعبه والنبي الصالح في قومه والرسول المبعوث بالحق في جميع مناطق الأرض.

وكل هذا ليتحقق فيه مفهوم الإسلام ولتبتهج في نفسه صورة هذا المواطن السماوي الذي يدعى بالمسلم... والذي يقول القرآن الكريم من أجله:

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٦٧) آل عمران.

ويقول:

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) آل عمران

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ نَاحَ(١٤) الصف.

ويقول:

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١) يوسف

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(٨٣) الشعراء

ويقول:

هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (٧٨) الحج

وكل هذا ليعقل المسلم أهمية هذه الرسالة التي يحملها عن السماء ويؤدي أمام سكان الأرض من بشير، من دابة وشجر، من ماء ونبت، من هواء ونار —

يقول:

خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩) البقرة

ويقول:

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ (٣٨) الأنعام

ويقول:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(٨٠) يس

ويقول:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ (٣٦) الروم

وغير هذا المفهوم الشامل فليس من الإسلام في شيء ولو صلى المسلم ولو داوم الحج ولو صام ولو أنفق ملء الأرض من الذهب -

يقول:

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ (٣٧) الحج

ويقول:

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (٣٥) العنكبوت

وهذا ليبقى المسلم نموذج الخير والسعة ولتبقى الإنسانية محل التطبيق لهذه المعارف بل ولتبقى الأرض فراشًا مخصوصًا لهذا المواطن العزيز الذي يملك ما يملل بالنية الخالصة وبالعمل الخالص... بل يملك ما يملكه بقانون من القوانين الروحية التي لا تصوت الجمعيات ولا تصوت الشعوب من تشريعها - والتي من أجلها يقول القرآن الكريم:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) فاطر

ويقول:

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٨) المنافقون

بل والتي من أجلها يقول الشاعر مخاطبًا محمدًا ﷺ

يا أبا القاسم الكريم المفدى

أنت في الحالتين أطيب طيِّبْ

قمت لله في الحياة شفيعًا

وشفيعًا بعد الحياة مهذبْ

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

وبــــدا في الأخـــــلاق منـــــك انــــسجام

وانـــسجام الأخـــلاق فخـــر مـــؤدبْ

فحيـــــــاة في ملـــــــة واجتمـــــــاع

في طاعـــــة واختيـــــار لا يُخيّـــــب

واحترمـــــت ابـــــن مـــريم كـــنبي

وابـــن عمـــران والخليـــل المـــصوّب

وجمعـــت الـــسلوك تحـــت لـــواء

خـــضعا ســـجدًا لـــربّ يغلـــب

صـــورة في البـــساط غـــارت عليهـــا

رســـل في الـــسماء يـــا خـــير معجـــب

صلى عليك وعلى إخوتك الأنبياء ورضي الله عن المؤمنين في جميع آفاق البلاد.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

وحول التجدد والتجدّد في الإسلام يدور هذا الحديث الذي اجتمعنا بكم اليوم من أجله، أيها السادة.. والذي لم يكن ليستغنى عنه المسلم في عصرنا الحاضر.

ونلاحظ أن الموضوع أوسع من الحديث فيه وأكثر انفساحًا من براهين المحدثين وهو فوق كل ذالك أبعد من آفاق المستمعين.

لأن التجدد سيشمل العبارات كل العبارات، ويشمل الحركات كل الحركات التي تتعلق بحياة الإنسان على الأرض – لاسيما في أواخر القرن العشرين.

وخير ما يكون التجدد – هو كما ذكر في القرآن الكريم – أن يتجرَّد الإنسانُ من اللباس الخلِق الذي يسمى بالجهل والعادة ويلبَس هذا اللباس الجديد الذي يسمى بالعلم والحقيقة... وكان كما قال:

أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ

(٢٦) الأعراف

لاسيما والتجدد له خياله الشعري، ومنظره العمليّ... إن كان خلقاً، فيتم الخلقُ التجددَ، وإن كان تقليدًا وبئس التقليدُ التجدد يفهم من هذا أن هناك تجددا وتجديدا...

وهذا أبو الطيب المتنبي يقول وكأنه لا يرمي التجدد إلا في نفس التجرُّد من زخارف الحضارة:

ما أوجهُ الحضر المستحسناتُ به
كأوجه البدويات الرعابيبِ
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غيرُ مجلوبِ

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

ولا شك أن نهج القرآن الكريم في الاعتراف بالقيمة، إنسانية كانت أو روحية، هو أن تبقى القيمة في صفتها الأولى، في صفتها الأصلي... لا إذا كانت مفرغةً منها أو محوّلة عنها – يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ (٤) المنافقون

غير أن هذا التجرّد لا يعني تقاعد الإنسان عن العمل ولو باسم القناعة، ولا يعني تحريم الطيبات من الرزق... " شدوا على أنفسهم فشدّ الله عليهم ".

لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ (١) التحريم

ويقول الكاتب الفرنسي المشهور "أندريه مَالْرو" تعليقاً على بعض زملائه واصفاً بلداً من بلاد الإسلام:

" لا ورقة في الخارج ولا أثاث في الداخل، ولكن هي الحيطان، وهي السماء، وهو الله!"

وكأنه يتعجب من هذه البساطة، لكنه يستنكر هذا التجرّد العادي الذي لم يكن إلا نوعاً من العجز.

وكل هذا دليل واضح جدًّا على أن الموضوع أوسع من أن يحاط به بسهولة. ولكن كيف نتردّد أمام سعة الموضوع، وثقة الإنسان في الحياة أقوى من ذالك... وهذا بعض مفكري البلاد يقول:

" فليسكُت العاقل عندما يتكلم السفهاء " ولكن كيف يسكت العاقل في هذا العصر الذي لا يتعرّف فيه الخير إلا إلى السفهاء، ولو كانوا أبعد إنسان من الخير؟

لاسيما وقد أقيم الكلام مقام العمل ووضع الخيال موضع الواقع بل جُعِل التشبه كأنه هو الحياة وكأنه هو كلّ شيء في الحياة... يقول الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلَهم إن التشبه بالكِرام رَبَاحُ

ما لم يكن التشبه هنا هو الاستمرار في التقليد الأعمى... و إلا فالتشبه سبّةٌ وغضٌّ من قيمة التجدّد.

هذا وإن الوسائل بل كل الوسائل تتجدد بتجدُّد العصور...

ولكن هناك تجددًا آخر لا يقدسه إلاّ أنبياءُ النظريّات الهدَّامة ممن يقودهم التجـــدد إلى الانزعاج أكثر ممّا يقودهم إلى الاطمئنان... إن التجدد تحت أمر الإنسان في كل عصر مـــن العصور، ووفق تطوُّر العقل البشري.

إنه الإنسان نتيجة للإرادة الخلاّقة، وإنه التطور نتيجة لتلك النتيجة: شيئان مزدوجان في إطار العلم الطبيعي وكأنه شيء واحد ...

فحيـــاة بهـــا ازدواج وأرض أنـــت فيهـــا بمُـــسْتَوَى الإدراك

وبينهما المعقول غير المعقول يُسمى بالوحي والذي يقول في حقه القرآن الكريم:

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ (٥٢) الشورى

بل والذي لم تكن الحروف الموجودة في الأرض لتُحيط بمـسالكه العديــدة... ومـــا الحروف إلى جانب هذا النور وجانب هذه المسالك إلاّ نقطة من بحر – يقول القرآن الكـــريم في ذالك:

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(١٠٩) الكهف

بما أن مقابل النور هو حب الاستطلاع كما ذكر المفكرون أو هو روح التجربة: هذه الروح التي تدعو الإنسان إلى تنظيم الأرض باسم الضمير العالمي. يقول محمد ﷺ في ذالك:

" الحكمة ضالّة المؤمن "

ثم لا حَرَج في هذا الحب ولا شقاوة في هذه الروح..

بل ثم لا "جنسيّة" ولا "عقيديّة" لهما..

إنه نور الله يهدي به من يشاء ... ولو عن طريق الإجمالي... إنه ذالك الوحي الذي يُخاطَبُ به الإنسان، لا بصفته كائنًا حيًّا عاقلاً فحسب... ولكن بصفته عضوًا في المجتمع، وبصفته أميرًا ومنظمًا لسائر الأجناس في الأرض! وذالك إمّا عن طريق الأساطير – كما في القرون الأولى – وإمّا عن طريق السلوك والعمل ... يقول القرآن الكريم في ذالك:

وقالوا – لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (٣٢) الفرقان

(نتيجة ملموسة لما حققه سيدنا محمد ﷺ بواسطة الوحي وبهذه الكيفية التي يختص بها القرآن الكريم.

ويقول:

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا(٣٣) الفرقان

ويقول زميلنا العصري السيد عزيز الأحبابي:

((لا يكون الوحي وحيًا إلا إذا كان في استطاعته أن ينتظم في سلوك الحوار المستمر والمتطوّر مع الإنسان؛ وأن يساهم في تكوين شخصيته)).

وذالك لا يمكن إلاّ عن هذا الطريق الذي أشارت إليه تلك الآية الكريمة.

ويقول السيد "أندره مالرو" في ذالك استهزاءً بالمثقّفين الذين لا يفهمون هذا المعنى التدريجي في ساحة التجربة:

((ووالدي كان ينسى دائماً أنّ المثقفين أصبحوا جنسًا مستقلاً... وأن فكرهم يقبل السلوك المجردة أكثر مما يقبل عملية الاختبار بل وأنهم يفضلون صحبة الكتاب على صحبة التجربة... ولماذا لا؟ والكتاب أخف على أيديهم من مسؤوليات الحياة على عواتقهم))

يصلح بالإنسان ما لا يصلح بالقرآن

يعني أن عقل الإنسان هو الذي يحتفل بمعاني الآيات ليطبقها على مقتضيات صالح البشرية في كل عصر من العصور.

بل يقول المفكر الألماني "فريدريك نيتش":

((ليس من السهل أن يعني عنك أيها الحكيم، بسبب أنك تتراجع عن التنفيذ بعد القوة والاستطاعة.))

ويقول بعده الفيلسوف الفرنسي الكبير "ألي":

((وفي ساحة العمل يكتشف الإنسان قوة إرادته، وقوة حبسه، وقوة تعلقه، بل ومستوى كيانه ... وما هناك منهج آخر.))

على أنه هو الإنسان في ذالك غير مسلم للخلوة ولا للعزلة... وذالك رغم الاحتكاكات والاضطرابات... والقرآن الكريم يقول في ذالك:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) الصافات

ويرى جميع مفكري التجدد أن هناك وحدة عجيبة بين الإنسان والكون، وأن هذه الوحدة تقتضي الاعتراف بوجود كائن عجيب، شأنه الخلق، وشأنه تنظيم ما خلق؛ وشأنه تنفيذ إرادته في كل ما خلق... يسمى ذالك عند بعضهم بوحدة المنطق التي لا ترى في الإمتيازات الكائنة بين علوم الطبيعية والعلوم الإنسانية إلاّ أمرا سطيحًا.

بل يرى في ذالك جميع مفكري التجدد أن مشكلة الغايات هي بنفسها مشكلة العبوديات (الإنسان ميسّر لما خُلق له) كما ينطق به القرآن الكريم في هذه الآيات:

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ(٢٦) الروم

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (٤٤)الإسراء

يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٢٤) الحش

فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(٣٣) الرحمن

تلك هي مشكلة العبوديات بالنسبة للكون عامّة وبالنسبة للإنسان خاصّة؛ أو هي مشكلة الألوهيات بالنسبة لما وراء الكون عامة، وبالنسبة لمن فوق الإنسان خاصة...

وقد يفهمون من كلمة : السلطان" معنى القدرة العظمى التي تتصدر لوضع القوانين الطبيعية وإلى تنظيمها لإغناء الغايات والعبوديات.

يقول السيد "أندره مالرو" تعليقاً على السيد "جاك رويف":

((ليس في العالم أي حقيقة من الحقائق إلاّ إذا عرضت على العقل السليم فرأى فيها مجموعة من أفراد منتظمة بعضها في بعض.))

ويقول القرآن الكريم فوق ذالك: وإشارة إلى هذه القدرة:

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٥٩) الأنعام

وقد ذكر بعض علماء الذرة في مجلة (بلانت):

((فالذرة ليست بنتًا مفقودة لا أهل لها بل هي تنتسب إلى عائلة معينة؛ إلى مجموعة مشكلة... وهل معنى التشكيل إلاّ مركز موصلات، أو تأثير كل ذرة في سائر الذرات؟)).

وقد أصاب إذًا بعض من لا يرى التجدد إلاّ مرتبطاً بمشكلة الغايات التي هي مشكلة العبوديات — و إلاّ فهو شيء بلا غاية؛ و إلاّ فهو نوع من الغرور ويقول القرآن الكريم في ذالك:

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ(٧٣)مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤) الحج

وهذا السيد " لويس بوفلس" يعلق على "شارل بواريه":

((لا بد من مواجهة الخطوة أو الوثبة الأمريكية بوثبة مثلها... ولا بُدَّ من القيام بإصلاح العملية الإنسانية ... نعم ! لكن ما هي الغاية النهائية في ذالك؟ من أجل أن يكون كل إنسان أي شيء؟))

على أن هناك ما تشير إليه الكتب المقدسة باسم القدر:

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) القدر

يعني الوحي – لكن بصفته مجتمعًا وحضارة؛ ولا ينحصر ذالك في ليلة ما؛ بل يريد بذالك أن الاعتراف بالقدر عزة وكرامة للإنسان:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) فاطر

ويقول السيد " أندره آمار" دفاعًا عن موقف التعالم المسيحية أمام مقتضيات التجدد:

((فالإنجيل القديم المقدس لم يكن كتاباً من الكتب التاريخية ولا مشهدًا من المشاهد العادية؛ إنما هو قانون... وأي قانون! يحدد للإنسان كل ما يتعلق بمقدرات حياته، ويحدد له روح كيانه، وإذا حاول الإنسان أن يتخلص من هذه المقدرات ومن هذه الروح التي تدعو إلى غاية من الغايات، فما هناك إلاّ سخافة وضلال.))

فمثل الإنسان غير المعترف بالقدر، كمثل الكلب:

إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (١٧٦) الأعراف

ثم لا يعني ارتباط التجدد بمشكلة الغايات وفي الحرية عند الإنسان. فإن الإنسان الحر هو الذي ينقاد عقيدة وعملاً إلى ما يدخل الانسجام في نظام الأشياء – لاسيما في نظام الكون! وبذالك يرضي الإلهيات كمعترف بها بالكمال التام:

أدّبني ربّي فأحسن تأديبي.

وهذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى هذا المعنى السامي من الانقياد ومن الارتباط بمشكلة العبوديات... وذالك إما بمستوى الطبيعيات، وإما بمستوى الإنسانيات.

أدّبني ربّي فأحسن تأديبي... نعم إذا حسن الأدب حسن الفهم. وإذا حسن الفهم سهل به الانقياد... وبسهولة الانقياد ينتفي التثاقل وينتفي معه الشك – فصارت العبوديات كأجهزة منسجمة سواء في نظام الطبيعيات أو في نظام الإنسانيات ... وعلى هذا يتفق المتجددون من علماء.

يقول العالم الطبيعي الكبير السيد "ألبير ديكروك":

((والجهاز كمُعَبّد لبذور الكيان فهو المعنى المقبول لتقوية النظام ولإنعاشه)) ويقول القرآن الكريم فوق ذالك:

وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ (٧١) المؤمنون

ويقول:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) الأنبياء

يعني من أجل الأهواء البشرية... ولو لا هذه الهواء التي تستطر على الجنس الإنساني لتمكن علماء التجدد من أن يحققوا الوحدة العلمية والعملية التي لا يتحقق السلام في العالم إلاّ بها. والتي تقتضي من العواطف ما تقتضيه من الجوارح؛ هذه الوحدة التي ترتكز حول هذا الخطاب الغيبي:

خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ (١٢) مريم

على أن العلم يوجد بالجد والثقة... ثم يُتبع ذالك بهذه الكلمة التي هي الغاية في العلم والتربية:

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(١٢)وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا(١٣) مريم

هذه الوحدة التي تمنع علماء التجدد من التحول إلى جنس من عفاريت والتي تضمحل أمامها العنجهيات ويضمحل معها كل أسباب الطغيان – لاسيما والقرآن الكريم يذكر أن كل شيء في الحياة " إن هو إلا متاع إلى حين" كما يذكر مخاطباً العلماء بهذه الآية:

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(٨٥) الإسراء

وهذا السيد "بيري كومّونار" يقول: ردّاً على العفاريت:

((نعم! ولقد عرفنا واتصلنا بقواعد الكيمياء الوراثية، واستطعنا بواسطة هذه المعرفة وهذا الاتصال أن نفرض على أنفسنا السيطرة – الرقابة على الحياة – وهذا يعني أننا تقدمنا تقدّماً عجيبا في ساحة التجربة من دون أن نعقل كل ما في ذالك من خطر...

ونتعبر أن هذه التي كوّنها العلماء أنفسهم مما لا يقبله المنطق السليم. فيجب إذًا على كل إنسان أن يتنبّه إلى ذالك..))

ولكنها الأهواء البشرية هي التي تثور دائماً على دوافع الانسجام وعلى وسائل الخير والسلام:

((وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ...)) هود

لاسيما والإنسان قد وجد الكون تحت هذا الأمر الذي يتطور به كل شيء يقول القرآن الكريم:

((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(١)))

الإنسان؟

ولم يكن إذًا مساهمة الإنسان في تطوير الكون إلاّ بقدر ما يعترف بمشكلة الغايات ويقول السيد " مير لوبوني" في كتابه "روح الإدراك":

((والعالم موجود قبل كل دراسة تحليلية... والتحليل إذا بالنسبة للعالم أمر سطحي: إننا نحاول أن نصور الحقيقة وليس باستطاعتنا أن نخلقها – لأنا وجدناها كما هي عليه.))

هذا وإن العبوديات تنقسم إلى علويات وسفليات: الأولى تحت سيطرة من السماء؛ والأخرى تحت رقابة من الأرض – يقول القرآن الكريم في ذالك:

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (٥٩) النساء

والرسول هنا هو الواسطة بين السلطتين أو بين الإلهيات والعبوديات...ففي هذه السفليات يكون الإنسان حراً وأميراً ومنظماً... يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(٧٠) الإسراء

ويقول:

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(١٠)فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ(١١)

الرحمن

ويقول:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩) البقرة

وبواسطة السفليات يدرس الإنسان كل قضايا الحياة ويساهم في تحصيل الحل لها، مساهمة تكون كمقابل لهذه الكرامة؛ فتلك المساهمة التي تسمى بالطاعة والتي تتراوح فيما بين الأمر والنهي – يقول المؤدب الفرنسي الكبير السيد "ألين فيها:

((إن الأمر يعود إلى تقدير الجهود التي قام بها عظماء الإنسانية؛ والمشكلة مشكلة عدم الكفران بالنعمة التي صدرت من هؤلاء العظماء؛ والمشكلة مشكلة إخلاص الحب لمن يستحقون الحب من أشباهنا؛ وخصوصاً للفكر البشري المتطور.

ويقول زميلنا السيد "عزيز الأحبابي:

" كانت الخطوة الأولى تقودنا من الغيب إلى الشهادة؛ والآن لقد حان لنا أن نخطو خطوة جديدة ترشدنا من الاكتشافات الدنيوية إلى خالق الدنيا؛ وذالك بالصحبة مع إخواننا وأشباهنا... اعترافا بوحدانيته تعالى قبل التحنثات التقليدية... ليعتبر الإنسان نفسه كأداة من الأدوات التي تحتاج إليها الأرض للانتظام في سلك الحياة الحقيقية؛ وليبقى الإنسان إنسانًا على كل المستويات – احتفاظًا بقيمة العمل. فبواسطة هذا العمل يجتمع الإنسان بالإنسان. فتكون بذالك العلاقات الحيات الجيدة التي تربطهما بالله! "

وعلى هذا المنوال يجري ذالك البحث الذي أعلنته في هذه الأيام المجلة الفرنسية العالمية الكبير " باريس ماتش" ويعدُّ تعبيرًا عن القلق السائد عند زعماء المسيحية؛ ذالك البحث الذي يقول فيه السيد "جاك دي كينن":

" المسيحيون لا يقبلون اليوم الانتساب إلى هذا الرهط المنعزل الذي يسمى بالرهبانية، والذي كان أشبه شيء بهيكل اجتماعي فرضته على الناس حقائق التاريخ، والذي أصبح اليوم مغايراً للمقتضيات الحالية، بل ولتعاليم الإنجيل"

ولكن ما قاله القرآن الكريم في ذالك أولى بالذكر:

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَامَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(٢٧) الحديد

هكذا السفليات من العبوديات تدعو الإنسان إلى حياة اجتماعية خيرة، ثم يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢) الملك

أخرج الإنسان من حالته الجوهرية المتجردة إلى حالته المادية المحسوسة لحكمة يعيّنها ويسمّيها بالعمل أو بالابتلاء...

ويقول:

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (١٢٣) النساء

ويقول:

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى (٢٦) يونس

ويقول:

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى (١٠) الروم

والعمل هو كل شيء في الحياة الاجتماعية للإنسان كما في هذه الآيات القرآنية ... الإنسان بلا عمل غير ممكن؛ إما أن يعمل عملاً حسناً أو عملاً سيئًا:

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(٦١) الصافات

ويقول السيد "أندري آمار" معلقاً على السيد "جاك روويف":

" وحضور الإنسان في المجتمع لا سيما أي حضور آخر حضور خشبة الكبريت في العلبة؛ لأن الأول متحرك فعّال. ولفظ الكيان بالنسبة للإنسان شيء يستحق به أن يجري مجرى العمليات النافعة" .

ولذالك يسمى الفرد بالإنسان، ويسمى الأفراد بالأمة... و إلاّ فما هناك إلاّ إخلال بنظام الطبيعة والإنسانية.

وإذا كان العمل مرادفًا للابتهاج الحلال فهو العمل و إلا فلا شيء. يقول السيد " ألين" في ذالك:

والآن نعرف – بناء على هذه المعطيات – أن الابهاج والسرور في إطار الحلال هو روح العمل.

ويقول السيد "عزيز الأحبابي" تعليقاً على ما ذكر القرآن الكريم ما السير على الطريق الوسط:

"والطريق الرئيسي الذي يقود إلى التجديد الحقيقي يوجد على مفترق فكرة الحق والنفوذ: تعاليم دينية مناضلة تعطي الإنسان نصيبه من الحياة المادية، وحكمة تدعو إلى التطبيق المستمر، وذالك بالنسبة للحقائق الحاضرة التي تستنير بروح الحق الذي هو الله عز وجل!

فإن السنة المؤكدة للإسلام تبقي إذًا المادة المغذية التي تمكن التقاليد المكتسبة من أن تزدهر وتحمل معها حقائق المستقبل."

يقول القرآن الكريم في هذا الأسلوب العجيب:

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ (٧٧) القصص

فإذا كان العمل صالحاً نافعًا فهو حسن، و إلا فسيء...

وعلى هذا الأساس يبني الإسلام شريعته المطهرة السمحاء؛ الشريعة التي لا يمكن للتجدد أن يتجاهل ولا أن يتجاهل كل ما فيها من صالح البشرية – لاسيما وقد قيدها الرسول عليه السلام بكلمة لا أرى بين المشرعين رجلاً يقوى على الإتيان بمثلها:

لا ضرر ولا ضرار.

هذه الكلمة جعلت شريعة الإسلام تتجدد في كل يوم ويتجدد معها صالح الأمة... لا ضرر في الأحكام ولا ضرار في المحاكمات، من يوم بعث محمد ﷺ إلى اليوم الذي " لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(٨٨)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٩)" الشعراء... تطبق النصوص على المصالح وتطبق المصالح على كلمة "لا ضرر ولا ضرار" لئلا ينقطع اتصال الخلف بالسلف.

هذا الاتصال الذي يكون إما عن طريق القياس المستمر، وإما عن طريق التزاور المعنوي الذي يسميه بعض الشعراء بالخيال؛ تقول الفيلسوف الألماني "كوته":

" هذا الخيال الملكوتي الذي ينهار في الحال عندما يحضر خادم من الخدام"

هذا الاتصال الذي ربما ذهب بالإنسان العادي إلى توسيخ الإلهيات

وإلى إقامة الأوهام موضع الحقائق – يقول محمد ﷺ في ذالك:

"لعن الله قومًا اتخذوا قبورهم مساجد..."

ويقول الأستاذ "مالْرُو": حكاية عن ما رآه مكتوبًا على حائط من حيطان دار الآثار في القاهرة:

"ولقد استطاعت مصر أن تستعيدا لمقدسات الفائتة إلى الحياة، بواسطة استمرارها في الصلوات ... ولكننا نحن نحاول استعادتها إلى الحياة، بواسطة أخرى: بواسطة الشكل والأسطورة – من دون أن يكون هناك أي اتصال بالصلاة!"

وعندما يتكلم عن الأموات يقول:

" وبعدهم، يملك الأرض اله آخر ، إله التغيّرات الشاذة... هذه التغيّرات التي ترى في الآثار دولة للموت لا موضعاً للذكرى والتنسك..."

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(٥٩) مريم

وبكل ما ذكرنا يكون الإنسان مركزًا للعالم الحقيقي؛ بل وبكل ذالك يكون هو العالم الحقيقي في هذا العالم الطبيعي... و إلاّ، فما هناك إلاّ متاع الحياة الدنيا؛ وما هناك إلاّ زخرف

القول: وما هناك إلاّ شح مطاع؛ وما هناك إلاّ النزاع والفشل؛ وما هناك إلاّ أسباب الخوف والانهيار:

وليس وراء الله للمرء مذهب (١).

ويقول السيد "لويس بوفيلس"، تعليقًا على السيد " فورييه":

" وحضارتنا مؤسسة على الافتراق المحير: تفرق بين الإنسان ونفسه ؛ وتفرق بين المجتمع والقوانين الطبيعية، المنسجمة التي تنفعل بالجذب الإلهي، لا بمكيدة من الإنسان."

"أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم...

ويقول فوق ذالك القرآن الكريم:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ(١٩) الحشر

ويقول:

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠) الجن

ويقول السيد "لويس بوفيلس" أيضاً في بعض تعليقاته:

" العالم العصري يعلم اليوم أن الثروة الاقتصادية شيء جيد، ولكنها لا يمكنها الحصول على الحل عندما نجابه قضية الحياة الفردية، والعقلية، والعاطفية.

---

(١) هو عجز بيت لنابغة الذبياني قاله لنعمان بن المنذر معتذرًا

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

وتحت سلطة المهندسين المتحررين منهم والماركسيين غالبا مـــا يكـــون أن الحيـــاة في أعماقها وفي هويتها لا تكون إلا جرحاً من الجروح القاتلـــة، وضـــيقا حرجًـــا، وتـــشفيهاً وتفرغًا..."

ولكن هي الثقة برسالة الإنسان في الأرض، ما هي إلاّ تكميل لنقائص بالحب ...

وكيف لا تكمل النقائص بالحب وقد ذكر رسول الله ﷺ أنه لا يكمل الإيمان الذي هو أساس الحياة إلا بالحب؟ (١) وهذا بنسبة للكون عامّة وللإنسان خاصّة ..

وهذا رسول الإسلام يخاطب المسلمين في حجة الوداع فيقول:

---

(١) يسير إلى قوله ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

"فاتركوني ما تركتكم... لقد بينت لكم الحلال والحرام..."(١) يعني: أمـــا مـــا وراء ذالك فهو عهد واتفاق بينكم، وحكم يدل بين الإلهيات والعبوديات، وإخاء وتحابب!

فالإنسان أخو الإنسان... والإنسانية تلزم الحب أمام النقائص، فتتحول النقـــائص إلى كمالات: يتحول الضعف إلى قوة، والخوف إلى أمن، والاستكانة إلى طاقة.

و إلاّ فهو نابيون يقود العساكر لإذلال الأرض وللسيطرة على أبناء البشرية ... و إلاّ فهو الأسكندر الأول يصرخ أما الجنود لتنحط له الجبال والسماء، و إلاّ فهو قيـــصر الـــروم يحملق لتخضع له المناطق والقارات... و إلاّ فهو "أدولف هتلير" يلقي، بواســـطة الموجـــات اللاسليكة والمكبرات الصرتية،

تلك الخطابات التي يؤيد كل منـــها بهمهمـــة الـــدبابات ودوي الطائرات وفرقعة القنابيل...

---

(١) أنظر حجة الوداع لابن الحزم الأندلسي تحقيق الدكتور ممدوح حقي.

لكنهم جميعا غاية الأمر، الأسكندر بين أيدي غاسليه لا صراخ له ولا حركة؛ وقيصر الروم يتقلب تحت أوجاع الإخفاق، وكأنه طفل أصيب بالحمى... ونابليون في سانت هلين يناجي الفئران تارة ويفكر تارة فيما سلف من دهره – وأدولف هتلير يتردد بين الفرار والانتحار!

وإذا لم يكن كل ذالك داعية بل هي أقوى داعية من دواعي التحابب أمام مقتضيات الحياة وتجدد كما ذكرت الكتب المقدسة، فبئس ما صنعت الحياة وبئس ما ذهب إليه التجدد بالإنسان!

والسلام على عباد الله المخلصين!



بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه!

مساهمة الإسلام في تنظيم الحضارة العالمية!

هذا وإن الموضوع يطلب منا ومنكم ومن كل واحد، أيها السادة ... يطلب من المجهودات ما لا يتسع الوقت في بذله...

ولقد وجدنا الإسلام ووجدنا المسلمين في السنغال أحوج ما يكون كل واحد منهم إلى البحث في هذه المشاكل التي تهم الضمير العالمي!

ولعلنا، بسابق مشيئة من ذي العزة وبروح من التوفيق الإلهي، نتمكن أن نتحدث معكم فيها. مشكلة بعد مشكلة، لنعرف وليعرف كل واحدا كيف نقدّر هذه المساهمة إن كانت هناك مساهمة، أو كان هناك تقدير.

لاسيما ودعوة الإسلام ليس دعوة عربية أو عجمية ولا دعوة شرقية أو غربية ... إن دعوة الإسلام لا تختص بلون دون لون ولا بجنس دون جنس ...ولا ببلد دون آخر.

بل هي دعوة عالمية تفرغ العقائد، وتفرغ العلوم، وتفرغ كل أسباب الحياة في قالب التوحيد والتقديس ؛ تفرغها في قالب الآية الكريمة التي تقول:

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً (٢٠١) البقرة

كما تفرغها في قالب هذا الحديث النبوي الشريف الذي يقول:

نِعْمَ المَالُ الصَّالحُ للعبدِ الصالحِ

يقول السيد "لويس غاردية" في كتابه "معرفة الإسلام":

"إن الإسلام ينجلي كفكرة عالمية تصلح لكل إنسان ولكل أمة..."

إن هذه الدعوة مكنت الأديان الأولين من تطبيق هذا المبدأ العجيب الذي يعـــود إلى إحدى الحسنيين:

إن هي إلاّ إحدى الحسنيين

إما الموت في سبيل العزة والشرف؛ وإما النجاح لتعلو كلمة الله وليسود العدل أمـــام الظلم، وليسود الحب أمام السلطة.

لكن الإسلام يرى قبل كل شيء أن يكوّن ذالك الإنسان المثالي بعيّنه ويطلق عليه اسم المؤمن ... الذي من أولى واجباته أن يساهم ، بكل ما لديه ، في تنظيم الحضارة العالمية ومـــا وراءها إلا الغيب... وذالك حيثما يستوجب الغيب على نفسه استمرار رسالة العلم والخلـــق وبثها في المؤمن، واستمرار رسالة الإنسان نحو الحضارة ؛ يقول القرآن الكريم في **ذالك:**

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر

يعني العلم والخلُق – ويقول:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (٦٤) النساء

تلك هي المعجزة الإسلامية التي لم تنشأ إلاّ من هذا الحظ الرباني ولا ترجع إلاّ إليه! إنه تعالى هو المنزل للذكر على درجات متفاوتة ؛ وإنه المسيّر للتاريخ على نحو ما يحتـــاج إليـــه التاريخ من التيسير، وعلى نحو ما ينبغي للإنسان أن يقوم فيه بدوره وهو أهم دور !

يتبّق الآراء ولا يطبّق العلوم والمبادئ الأعلى هذه الفكرة الغيبية المقدسة المعيّنة باســـم القرآن الكريم...

وهل القرآن الكريم إلا عبارة عن هذه الفكرة التي بلغت بها أســـباب التطـــور أن لا تعترف إلاّ بالعلم والخلق و إلا بالعلم والخلق وحدهما؟.

وذالك لكي لا تذهب المعجزات بالحقائق، ولكي لا تصبح الأرض موضع التجاهلات دون الاكتشاف.

يقول السيد "بول ساليس" معلّقًا على الكتاب الذي ألّفه السيد "كودفروي" في حياة محمد:

"و لم يزل محمد يرفض في ضروريّة المعجزات – نعم كان يعترف للأنبياء بإظهار المعجزات، وخصوصًا لعيسى بن مريم... ولكن هو نفسه لم يأت إلاّ لإعلاء كلمة الله التي سوف يجد الإنسان فيها الآيات البينات ... هذه الآيات التي يحتاج إليها عندما يطالب عقله وقلبه بالإيمان. ومن الممكن أن يقال إن التزام المسلم بالسلوك في طريق القرآن الكريم يقوم مقام إيمان المسيحيين بالمعجزات...

فالقرآن والترتيل هو روح الترابط بين المسلمين؛ وبه يكون الترابط بينهم وبين الملك الغفار...

ولابد لنا أن نردّد بأن الكيفية الجذّابة التي تتحلى فيها هذه الكلمة العديمة النظير، والشعور الودي الذي تغرسه في نفس المُرتل، والقوة المعنوية التي تزوّده بها والتي تنبعث إلى الشهادة، فهاهنا المعجزة الوحدة التي تنطق بأن رسالة محمد ﷺ حق وأن دعوته حقيقة لا محيد عنها... و يتابع قائلاً:

إن تجربة محمد ﷺ كانت من أحسن ما يكون من تجاريب الإنسانية – ولذالك كانت بعثته سببًا لأعظم ما يكون من المسبّبات التاريخية. "

وكيف تُنظّم أية حضارة من الحضارات دون أن يساهم في ذالك إنسان من البشر؟

وكيف يساهم الإنسان إلا قدر ما تسوغه له المبادئ، وتطيب له الحركات؟

يقول القرآن الكريم مخاطبًا هذا الإنسان ومقدّسًا مبدأ العمل:

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(٧) {أي إذا فرغت من عملٍ، فانصب في عمل آخر} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨) الشرح

بل يقول الزعيم السنغالي الكبير الشيخ الحاج مالك سي:

"إن الفراغ هو روح الجرائم"

وهذا محمد ﷺ يقول، إنكارًا على ما يرضي به الإنسان الريفي من الإعراض عن واجبات التربية وعن أسباب العمل المعقول:

"من بدا جفا"

يعني إن في الرضى بالبداوة هو الرضى بالجفوة نفسها. يبدو من ذالك اهتمام الحضارات بإنقاذ الإنسان الريفي من العواقب الوخيمة العقيمة!

وهذا السيد "هنري ديفيد تورو" يعترف بإيجابية هذا المبدأ حين يقول:

"إن تربية كل إنسان لا تكتمل أبدًا.. وإن من المستحيل أن يتحوّل القرى والأرياف إلى جامعات — لنشر مبادئ التربية."

وكان يكتب كذالك فيقول:

"إن أي نظام وأي سلوك، مهما بلغت به الإسلام، لا يمكنه أن يقوم مقام الاستمرار في التيقّظ."

وفي هذا المعنى العظيم، يقول القرآن الكريم:

لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ (٦٧) يوسف

إن مشكلة الحضارات إذًا؛ هي مشكلة الناس، ومشكلة الناس هي مشكلة المبادئ، ومشكلة المبادئ هي مشكلة الحركات التي بها يتمكن البشر من التعبير عن مقتضيات الزمان — ومن تطبيق المبادئ، وفق هذه المقتضيات...

"إن العارف من عرف بمقتضيات الزمان..." وسير الإنسان لا يكون إلا بسير الزمان.

فالمشكلة ليست مشكلة حرب ولا مشكلة سلام ولا مشكلة سياسة ولا مشكلة اقتصاد ولا مشكلة عمل — ولكنه مشكلة إنسان يكون باستطاعته أن ينظّم الحضارة لصالح الأرض، ولصالح سكانها البشر... و إلاّ، فالسياسة هناك خداع، والاقتصاد وسيلة إلى الاستغلال، والعمل نوع من الظلم، والحرب نتيجة من نتائج البغي، والسلام سبب من أسباب الدعة — ثم لا حضارة اليوم إلاّ ما عليه القوي من الطيش والحيرة... ومن تهديد الأرض بالتدمير.

وجدير بالشباب اليوم أن يُلقي هذه الأسئلة المدهشة:

"الدراسة؟ دراسة أيّ شيء؟ من أجل أي شيء؟ لجميع المال؟ أو لإفادة أي شيء آخر؟ أو للإقتداء بأيّ إنسان؟"

وفي هذا المعنى، يقول القرآن الكريم:

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٣٢) الأحقاف

وفي هذا الإطار، يقدّر الإسلام مساهمة الإنسان المؤمن في تنظيم الحضارة العالمية؛ وفي هذا الإطار كذالك ينبغي للإنسان المؤمن أن يدرس كل ما يتعرض له من قضية... وكان الإنسان المؤمن في كل ذالك أمام هذه الصورة، وأمام هذه الأسوة، أو أمام هذه الحياة الكبرى التي هي التطبيق العملي لتعليم القرآن الكريم، والتي يقول الغيب لصاحبها:

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) القلم

يقول الشاعر الفرنسي "لامارتين": في كتابه (تاريخ تركيا)

أبداً، لم يفرض إنسان على نفسه - اختيارياً - هدفاً أشمل بالملكوتية... لأن هذا الهدف فوق الطاقة البشرية: قطع علاقات الخرافات الحائلة بين الخليقة والخالق، إحضار الله للإنسان وهداية الإنسان إلى الله، تجديد الرأي المنطقي المقدس إرضاءً للألوهيّة وذالك بين أباطل الآلهة المتشخّصين والمتطلّعين إلى الوثنية!

أبداً... ما حقق إنسان في مدة قصيرة. ثورة كبيرة مثلها في العلم... حيث إنها، الدعوة الإسلامية، بأقلّ من قرنين، بعدما اتّعظت وتسلّحت سيطرة على المناطق العربية، واختضعت، لوحدانية الله، كلا من الفرس، وخراسان والمحيطات، والهند الغربي، وسوريا، ومصر، والحبشة، والقارة المعروفة بإفريقيا السابعة، وجزائر البحر المتوسط، وأسبانيا، وشيئا من أراضي الإفرنج.

وإذا كانت عظمة الهدف. وحقارة الوسائل، وسعة النتيجة هي المعيار الوحيد لتقدير مهارة الإنسان؛ فمن يتجرأ منكم - وعن طريق الإنسان - على مقارنة أي عظيم من عظماء التاريخ بمحمد؟

إن كان العاملين ما حرّكوا إلاّ عساكر، وقوانين، ودُولاً... وما أسّسُوا، عندما أرادوا تأسيس شيء، إلاّ مادية قد أضمحتْ قبل وصولهم إلى الغاية...

ولكن محمدًا ﷺ حرّك عساكر، وأحكاماً، ودولاً، وشعوبًا، وممالك، وملايين من الناس في أطراف العالم المسكون؛ بل حرك – مع ذالك – آراء، وعقائد، وأرواحًا... وأسّس، على كتاب واحد – ثبت أنَّ كل حرف منه يقابل قانوناً مستقلاً على هذا الكتاب الجنسية الروحية التي تحيط بالشعوب في جميع اللغات وفي جميع الأنواع... بل طبع – بشكل غير متغير ولهذه الجنسية الإسلامية – كراهة الآلهة الخونة، وحبّ الإله العلي القدير

حكيمٌ ، خطيبٌ ، نبي ، حاكم ، محاربٌ ، فاتح الآراء ، مجدّد لقواعد عقلية، رجل ديانة بلا تماثيل ، مؤسّس عشرين دولة أرضية ، ودولية روحية سماوية...هذا هو محمد !

ففي أي مرقى من المراقي التي تُقدَّرُ فيها العظمة الإنسانية، من هو أعظم؟



إنها مساهمة تتطلب من الإنسان المؤمن أن يعترف بهذه الرسالة الشاملة التي حملت صاحب هذه الحياة على أن يقول في بادئ الأمر:

"بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

أو بعثت لأساهم في تنظيم الحضارة التي نطقت بها التوراة لصالح اليهودية، ونطق بها الإنجيل لصالح النصرانية، والتي ينطق بها القرآن الكريم اليوم لصالح البشرية كلها تتميماً لما سبق...

ورحم الله شوقي حيث يقول، إشارة إلى هذه الخطة الواسعة التي تعم الدنيا بالعمل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يعني الحضارات – وإنما الحضارات هي الأخلاق... لا المدافع ، ولا الـــدبابات ، ولا الدولاريات... وإن ذهبت الأخلاق ذهبت الحضارات معها بلا شك، يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَـــانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَـــصْنَعُونَ(١١٢) النحل

ويقول:

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١) الأنبياء

وإلاّ فما ثم إلاّ مبادئ فضل في مجاهل العادات والتقاليد...

يقول القرآن الكريم في ذالك:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (٥) الجمعة

فمساهمة الإسلام إذًا في تنظيم هذه الحضارة، إنما هي معنى من تكوين حضارة مثاليـــة في الأرض وباسم الغيب، لتكون الأرض كمرآة تنعكس فيها صورة من صور الغيب، وليكون الإنسان فيها خليفة للمهيمن على الأرض ثم لا رفث ولا فسوق ولا جدال في هذه الحضارة، بل لا لغو فيها ولا تأثيم.وذالك ليبقى المهيمن إلهاً في الملكوت بكل ما لديـــه مـــن الخـــلاق المقدسة، ويبقى الإنسان في الملك وكأنه يمثل هذه الخلاق ولا يمثلها إلا بمستوى الإنـــسانيات الخيِّرة التي تبني هذه الحضارة العالمية ولا تبنيها إلاّ للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فساداً – وإلاّ لهؤلاء الذين شأنهم العمل، وشأنهم التكوين،وشأنهم التعمّر، وشأنهم إحاطة الحـــضارة بالحياة العلمية والعقلية والأدبية التي من أجلها يقول الغيب، مخاطباً البشر:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِـــيكُمْ (٢٤) الأنفال

وذالك قبل أن تذهب الشكوك والرذائل بالقلوب...

ويقول الغيب في ذالك:

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ (٢٤) الأنفال

ويقول:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ(٤٢)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ(٤٣) يونس

ويقول:

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢) فاطر

وهذا ليكون الفرد فيها نائباً عن الجماعة، والجماعة نائبة عن الفرد،وليبقى الناس فيها سواسية أمام العزة والشرف... و إلاّ، فما هناك إلا أولئك الذين حبسوا أنفسهم على الذل والهوان حتى جاءهم الموت وهو عن تلك الحالة راضون – يقول الغيب في ذالك:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(٩٧) النساء

وهذا بخلاف ما إذا كان الذل والهوان مرادفين للقناعة والأنفة، حيث إن توفير الغنى المادي ليس من عزة الروح في شيء:

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ (٢٧٣)البقرة

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨) الإنسان

" والحاصل أن "سقراط"، عندما كان يمرّ بسوق "أثينا" كان يرى كثرة البضائع والحاجات التي تُرض على الناس، فيقول بل يصرخ:

(كل هذه الأشياء ليست لي رغبة فيها..)

وحيث أن كبراء الناس الذين يسميهم الإسلام باسم الأولياء لا يجدون السعادة في الغنى المادي، ولكن في سكينة النفس، ونباهة الشأن، وحسن الذكرى، وقوة التمكين في الأرض – يقول القرآن الكريم في ذالك:

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣)لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤) يونس

وجاء الحديث في حق هؤلاء الكبراء يقول:

من آذى لي ولياً فقد آذنته بحرب

ويقول محمد ﷺ في ذالك: إشارة إلى تلك الثروة المعنوية التي لم يزل بها كبراء المؤمنين:

لو سلك بن الخطاب فجًا لسلك الشيطان فجًا آخر.

نعم! إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون...لما فيهم من القوة المعنوية: من الطاقة العلمية والجسمية التي لا تنتج عن الغنى المادي، ولكن عن سر المعرفة، وسر الاتصال بالغيب ... ثم لا يمنعهم ذالك من الكتب، ولا من إغناء النفس والغير بما عند الغيب من طيبات الرزق.

وهذا هو القرآن الكريم يقول:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ (١٩٨) البقرة

ويقول:

هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (٤٠) النمل

أو ليس سيدنا محمد هو القائل ، ولاحظًا هذه القوة العلمية والجسمية، ومقدرًا هـذه الفضيلة الكبرى التي هي إغناء النفس والغير بطيبات من الرزق:

إذا قامت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها!

ويفهم الإنسان من كلمة "إغناء النفس والغير" ما هو أوسع وأجود من كل ذالـك... فيشمل الحيوان والنبات وكل شيء

وهذا محمد ﷺ يقول أيضاً في هذا المعنى العظيم للإغناء:

دخلت النار امرأة في هرّة أمسكتها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل مـن خـشاش الأرض.

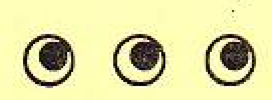
ويقول:

اتقوا الله من كل ذي كبد حرى.

ولم يزل يحذر من قطع الأشجار التي ينتفع بها الناس.

وإذا بلغ العلم والخلق بالإنسان... المؤمن هذا الحد، فمن البديهي أن يحيا الحـضارات كلها بعيدة عن المباذل... بل ومن الحق أن تتخلص حياة الإنسان في الأرض من كل ما يبدو وكأنه رذيلة معقولة... فتستمد الحياة حينئذ من ضياء الشموس الجوهرية أكثر مما تستمد من ضياء الشموس الحسية؛ ولا يرى الإنسان سير العصر ولا تتابع الحوادث إلاّ وراء مقتـضيات العلم والخيل .. ويقول مع القائل:

لا أرى الدنيا علـى نـور الـضحى بل أرى الدنيا علـى نـور الـيقين



ووراء عالمية الرسالة تضمحّل كل أسباب التفرقة وتضمحل معها أسـباب العنجهيـة والغطرسة؛ بل ووراء إيجابية هذه العادات التي تبطل الصدقات بالمن والأذى، وتفرق البشر إلى عدة طبقات،وتجعل المشاكل أحوج إلى خيال لحلها منها إلى حل مناسب بسيط فتنتفي بذالك

الأخوة والمؤاخاة الحقيقية، وينتفي معها المن واليقين،ويسود الشك والحذر، وترجع الحضارات إلى آفاقها القديمة التي جعلت أفرادًا من أهلِ الكتاب يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه... وأنه لن يدخل الجنة إلاّ من كان هودًا أو نصارى...

يقول السيد "الأحبابي" في هذا المعنى الحكيم:

"والشخصية الإيجابية تمتاز بإطلاعها الدائم على أشياء الحياة – اعتبارًا لحقائق المستقبل؛ ثم تستهدف المتوسط في الأمور فلا تنحاز إلى أية أكثرية ما الأجناس أو الفكريات، ولا إلى أية معارضة من المعارضات، ولا إلى أي خلاف من الخلافات... لتتمكّن بذالك من الوصول إلى الوحدة الجنسية لجميع أبناء البشر."

و إلاّ، فكما يجب العلم والخلق أمام كارثة الغطرسة والعنجهية: تلك أمانيهم

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) البقرة

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٤) الأنبياء

أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦٤) النمل

ثم ينتفي مع ذالك مبدأ الحوار والشورى الذي يعينه القرآن الكريم باسم الكلمة الطيبة:

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا (٢٥)إبراهيم

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (٨٦) النساء

وحسمًا لأسباب الحوار العقيم الذي ينتج عن الفوضوية:

يُحبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ (١٤٨)النساء

فيبدو الآية وكأنها تنكر على الناس كل ما يخالف التوازن، كالمحاربة بالقلم، والمظاهرة، والإضرابات، وسياسة الإرهاب، وما يجري مجرى ذالك من سوء التفاهم بينهم؛ ما لم يكن

ظلم من جانب السلطات أو من جانب المواطنين – فعلى السلطات إذاً وعلى المواطنين دراسة السباب التي تؤدي إلى الظلم وعرضها على الرأي العام.. و إلاّ، فالظلم ظلمات – ويختار القرآن غير ذالك مبدأ الشورى، بل يقرر أن أمر السلطات والمواطنين حينئذ شورى بينهم – وذالك قبل أن تتحول الصغائر إلى كبائر وقبل أن تقوم البوادر مقام البصائر.

وإلى هذا تشير بعض كلمات الدبلوماسية الأمريكية بلسان الرئيس "جونسون":

"والأنواع السيئة – من العمل – نتائج لسياسة سيئة" وكذالك:

"الطريق الذي يقود إلى الإصلاح يمرُّ دائمًا بنادي الشورىّ"

وتعترف هذه الدبلوماسية الأمريكية بأن فلسفة السياسة الخيّرة تأخذ قسطها من الاستقرار والتوازن.

على أن القرآن الكريم يشير إلى ما يختبئ في أعماق النفوس من الشر فيقول:

وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ (١٢٨) النساء

ليأخذ المواطنون كل أسباب العدة في تطبيق مبدأ الشورى ؛ وليس من السهل اليسير أن يفهم الناس ما في هذا المبدأ من الخدمة للسلام... وأعسر من ذالك أن يتمكنوا من تطبيقه وفق ما يقتضيه صالح البشرية – يقول القرآن الكريم تطمينًا لهذه النفوس:

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا (١٢٠) آل عمران

❂❂❂

وقدا نتشر الإسلام، وسجّل التاريخ البشرية...

لكن لا يعني تأخر المسلمين في هذه القرون المظلمة تأخر الإسلام؛ لأن الإسلام لم يزل يرى في المؤمن إنساناً عالمياً ولو بلغ به الاستعمار إلى حد القاعد؛ ولو سارت به أسباب الاستغلال إلى ما هو عليه اليوم من الجمود.

لقد ترك الإسلام هذا الميراث العلمي والخلفي لسائر الحضارات ...لتكوّن الحضارات كلها كأجزاء تتألف وتتجدّد تحت إشراف هذه الرسالة القيمة ولتكون الأمة عنده عبارة عن كل سكان الأرض؛ وليكون الدين عنده لا يعرف العصبية ولا يعرف الجنسية ...

ففي وحدانية الله، يرى الإسلام وحدة الإنسانية؛ وفي كمال الصفات الغيبية، يرى انسجام الأخلاق البشرية؛ وفي أزلية السلطة السماوية، يرى تأميناً للصالح البشري... ويرى فوق ذالك أن التعايش السلمي الذي تقدسه الفرات باللسان ولا تؤكده بالفعل، ليس إلا صورة حقيقية لهذه الوحدة التي يقول من أجلها القرآن:

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤٦) النفال

ويقول من أجلها كذالك:

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (٢) المائدة

وكيف يتأخر الإسلام، وهذه المبادئ الخيّرة تبقي عند بقاء المد – إلاّ أن التصور التاريخي يقوى في بعض الأحيان فيحول بينَ الناس وهذه المبادئ ويقوى على إثارة العوامل لأمة ضدَّ أمة ليتحقق ما قاله القرآن الكريم في هذه الآية:

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١٣٠) آل عمران

وليعرف الفرد وتعرف الأمة أن سير العالم، وكل سير العالم، ما هو إلاّ إرادة الحكيم العليم؛ وأن هذا السير وراء هذه الإرادة، ربما لا يتحقق إلاّ جانباً من التطور البشري يقول القرآن الكريم في ذالك، مخاطبًا الأول:

فَلاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧) آل عمران

هكذا التاريخ يطبق على الأمة من شدائد البلايا والمحن ما شاءت الإرادة أن يطبّقه على الأمة – ولو عن سبيل انهيار الأخلاق؛ ولو عن سبيل تدهور الطاقات... ثم لا خير إلا إذا عقلت الحضارات الكبرى ما عليها من الاعتراف بجميل العلم والخلق؛ وإلاّ إذا اختارت

التعارف على التحارب... فتكون كما قال السيد "ريموند شارل" في كتابه(تطور الإسـلام) تعلقاً على ما ذكره السيد "لويس غارديه" في هذا الشأن:

"وهذا يبدو أن مسؤولية الغرب في موقف مستقرّ... وعلى الغرب أن يعيد هذه القيم الروحية والدنيوية إلى دورها العلمي؛ هذه القيم التي من دونها تكون ثقافة الغـرب،وتكـون فتوحاته الملموسة، في العلم، كشيء لا معنى له..."

ولعل الحضارات تتناول رشدها بالبناء أكثر مما تتناوله بالهـدم... ولعلـها تـرى في استقلال البلاد المعبدة، وفي تحرير المستضعفين درساً من أحكم دروس الحيـاة في الأرض ... ولعلها – بعد كل ذالك – تتلقى التاريخ بالترحيب، وتتلقى الحوادث العظمى والإيجابيـة... وهذا ما لم تسُدْ به عندها فلسفة التساقط التي جعلت أغنياء العالم يتكالبون على الفقراء، بل جعلتهم وكأنهم يضنّون حتّ بفضل التآخي والتقارب... فينكرون على المستـضعفين حـب الخير، وينكرون عليهم عقلية الكسب الحلال... بل يدّعون، فوق ذالك أن الفوز والنجـاح ملازمان أغنياء الحضارات الفنية المعارضة، ولأغنيائها فحسب – ثم يزعمون – إلتفاتاً إلى ما كان عليه بغاة السلف – أنهم أبناء الله وأحباؤه... قل فلم يعذبكم بالحر، ويعذبكم بـالخمر، ويعذبكم بالشح أمطاع، ويعذبكم باللهو والطرب، ويعذبكم بالظلم واللؤم، ويعذبكم بالطلع إلى الاستقلال؛ بل أنتم بشر ولعل الحضارات تستدرك هذا المجد الذي تبقي الأرض من دونه مذبحة، والذي إن لم يستدرك فسوف يثور البقر والخيل والذئبان، يومًا من الأيام، على أرباب المصانع وعلى مساكن العواصم وعلى رجال ناطحات السحاب لإرجاع المجد البشري. وإلاّ، فما هناك بشرية وما هناك حضارة!

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

أهداف الرسالة الإسلامية

إن المسلمين في جميع بقاع الأرض، أخذوا يتساءلون اليوم وهم لا يتساءلون إلاّ عن هذا النبأ العظيم الذي لا يقبل الحياة في الأرض إلاّ مملوءةً بالمظالم، والذي من أجله تصبح الحياة في الأرض رهينة بين أيدي الأقوياء... بل الذي لا يشغلُهُ إلاّ إحاطة المشاكل الإنسانية بالأسلحة: بالدّبّابات والطائرات؛بل بالصواريخ والقوات الذّرية.. ولا يشغَلُهُ إلاّ تحققُ السلام بالاتفاقيات المتحوّفة الفارغة التي تفتح له سبيل الوصول إلى أطراف المناطق، وإلى أوساط البلاد... كلُّ هذا جعل المسلمين يردّدُون هذه الكلمة المرعبة التي تقول:

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠) الجن

بل كل هذا جعل المسلمين يستفهمون أمام هذه الحالة عن موقف تلك الرسالة الدينية والإنسانية التي يدعو إليها الإسلام ويدعو إليها محمد ﷺ ...

وهل من واجب هذه الرسالة أن تخطو خطوة هؤلاء الأقوياء لتخضع لها الأرض، وليخضع لها اللهوُ والطربُ والقمار... أو من واجب هذه الرسالة أن تأخذ الطريق الوسط وتقود فيها الأمة الوسطى ليحيا الإنسان وهو لا يضحي بإنسانية في سبيل تركيب آلات الراحة: بل ليحيا الإنسان وهو لايُجْهِدُ روحه الكريمة الطيّبة في سبيل تدنيس الأرض بالدم وفي سبيل توسيخ المناطق بالاستغلال أو بما يصحب الاستغلال من الربا – يقول القرآن الكريم في ذالك:

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (٢٧٦) البقرة

ويقول:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (٢٧٥) البقرة

ويقول:

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢٦٦) البقرة

ويقول:

كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (٧) الحشر

إن هذه الرسالة في البلاد الإسلامية تخطو خطوة أولئك الأقوياء وتسارع إلى توفير أسباب الغنى والرفاهية... لتتوفر مع ذالك الأمراض الحسية والمعنوية.. ولتضيق فيه حياة أحرار الأرض الذين لا طاقة لهم في المساهمة بتأسيس الشركات الصناعية والتجارية، ولا بناء ناطحات السحاب ولا تنظيم دوائر الترف التي تأوي إليها بغاة الشعوب.

بل إن هذه الرسالة في البلاد الإسلامية تغدو عين التكافؤ الذي يجعل المسلمين لا يزدهون إلاّ بما تزدهي به أقوياءُ العصر مما لا يخرج عن جد الطغيان: من تزيين في الملابس والمساكن، وتطييب في المآكل والمشارب – وذالك من دون أن يكون للروح ولا الأخلاق المقدسة فيها نصيب معروف. يقول القرآن الكريم في ذالك:

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(٤٤) الأنعام

ويقول:

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١) الأنبياء

ويقول:

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ(٤٥)وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) الواقعة

ويقول:

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ(٨٣) الزخرف

ولكن من واجبات هذه الرسالة أن تطبق بإسم الله الواحد القهار مبادئ التربية والإصلاح وذالك لتبقى الحركات والسكان وليبقى كلُّ شيء كإشارة لهذه الكلمة القاطعة التي تقول:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) الصافات

والتي تقول:

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢) الملك

إن هذه الرسالة أسمى من أن تنطق بالغيب دون أن تعترف بالشهادة ولا أن تعترف بالشهادة دون أن تنطق بالغيب.

بل إنها تنطق وتعترف قبل كلّ شيء بالوحدانية وبمعانيها المتعددة التي تتصل بها وبذالك ويجعل الحياة مرحلة من مراحل تطور الجنْس إمّا في الغيب وإمّا منه إلى بطن الأم وإمّا منه إلى المجتمع، وإمّا منه إلى القبر وإمّا منه إلى الغيب مرة أخرى. يقول القرآن الكريم في ذالك:

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٥) الرعد

ويقول:

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٤٨) البقرة

ويقول:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(٥)هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦) آل عمران

هذا لتكمل نقائص الدنيا بالآخرة ولتكون الآخرة ينبوعًا من ينابيع الخير التي لا يحيا الإنسان حياته الحقيقية إلاّ إذا أرجع إليها، هذا لتكون الوحدانية هي العلّة الأولى في توجيه سر العوالم العلويات منها والسفليات. يقول القرآن الكريم في ذالك:

كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ(٧) آل عمران

ويقول:

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) البقرة

وكانت الحرية حينئذ حرية الناطقة بالغيب والمعترف بالشهادة؛ بل كانت الحرية في ذالك حرية الإنسان المصلح الذي يبني في الدنيا قلعات الأمن ويُعد للآخرة كنفات السعادة، والذي يطوي الآفاق لإنفاذ النفس من بلايا الظلم ولإخراج النفيسة من غوايات الظلمات فتسلم النفس من الظلم والنفيسة من الظلمات ويعُمَّ السلام في الأرض؛ ويصبح الإنسان في المصانع والمكاتب! في طوايا السفن والبواخر؛ في حنايا الطائرات والسيارت، في أوساط الجامعات في خبايا المؤتمرات... يصبح الإنسان في كل ذالك مؤمنًا بالغيب ومؤدِّيًا رسالة هذا الغيب أمام الأمة — يقول القرآن الكريم في ذالك:

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا(٨٥) النساء

ويقول:

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(١٢٤) النساء

ويقول:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(١٣٤) النساء

وإلاّ فالإنسان نوعٌ من الخسارة ولو ذلّل صعاب الأرض ولو استعبد الحديد ولو استغل مناطق العالم وذالك كما قال التجاني الحسني الفاطمي في قطعة من الشعر:

تريد المجد ثم تنام ليلاً
لقد أطعمت نفسك بالمُحالِ
لقد رمت الحصاد بغير حرث
يغرص البحر من طَلَب اللآلي
فدع عنك التعلّل بالأماني
وجُدَّ تنل مقامات الرجال
فليس يناها سعي الهُوَيْنَا
ولا باهون ترقى للجبالِ
ألا خلِّ التكاسل والتواني
ونفسك جرَّ عن مُرّ النكال

فمن ركَنَتْ لجيّتُه لعجزٍ
تقاعس عن محاولة المعالي
فإن وصد المفاخرَ لم ينلْها
ومن طلب العُلا سَهرَ الليالي

بهذا يكون الإنسان جديراً بالإنسانية وتكون الأرض جديرة بحياة الإنسان وإلاّ فلا خيّب الإنسان في رسالته القيّمة وما أحسنَها.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته؛

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

إله واحد شعب واحد عالم واحد

يسرنا، عندما نجتمع بكم أيها السادة!

أن نتكلم ونتكلم...

وبم نتكلم اليوم؟

نتكلم بمكامن هذا الإيمان الذي يدفع الإنسان، وخصوصاً الإنسان المسلم، وراء التطلع إلى حقائق الموجودات التي لا مطمع في التطلّع إليها إلاّ عن طريق الإيمان.

ولكن ما فائدة كلّ ذالك ما دام الناس هنا في السنغال، همُّهم الاستغناء بالعمل وحده. وإذا كان العمل مُرادفاً لبعض الحركات التعبُّدية التي يرثها بعضهم عن بعض ولو على سبيل التقليد، والتقليد الأعمى؟؟ هذا الشيخ التجاني الحسني الفاطمي يقول في كلمة جاء فيها:

إن التصديق خير من التقليد؛ وإن التصديق لا يكون إلاّ بالتوسُّع والتعمُّق الدائم المستمرّ بل إنّ الحياة كلها تساؤل؛ وتشجّع وتشكّل؛ واهتمام بكل ما يستغرق الأيام والحوادث ويستغرق كل شيء... حتى لا يردّد الحكيمُ هذا القول المزعج: أخاف هذا الوحش الموجود في الإنسان أخاف ذئبًا موجودًا في الإنسان:

وهذا هو القرآن الكريم يقول:

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا(٤٤) الفرقان

فنعم أيها السادة!

وإذا شاء الغيب أن نتكلم اليوم فإننا نتكلم بذالك ونجعله متوقفاً على هذه الكلمات الثلاث:

إله واد، وشعب واحد، وعالم واحد!

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

وحيث أن فكرة الإسلام لا تترتب إلاّ على هذه الكلمات... لتكون الحياة والحياة كلّها مقسمة بين الوحدانية الإلهية والوحدة الشعبية والوحدة العالمية

من النور ما نستدل به على مفاهيم

فالإله واحد، والشعب واحد، والعالم واحد! ليتحقق عن ذالك تلك الوحدانية الأقنوميّة التي هي الأصل في كل شيء...

ولكن كيف يدعو الإسلامُ إلى هذه الفكرة .. إذا كان أمامه طائفة من العلماء ومن الإيجابيين يعتمدون على العِلم لنفي وجود الله؟

إن الإسلام لا يدعو الرجال بالأسماء ولكنه يدعو الضمائر بالفطرة، ويدعو العقول بأسباب الحياة – فيقول:

ولئن سألت العقول بإذن من أسباب الحياة، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض؟ ليقولنّ: خلقهن العزيز العليم!

فهذه هي الأرض بجبالها وأشجارها وبحارها وأنهارها، وهذه هي الشمس بأشعتها وذرّاتها وهذا هو القمر بضيائه وآثاره؛ وهذه ملايين من النجوم والكواكب بخصائصها وطبائعها ونواميسها، وهذا عدد غير محدود من حيوانات وحشرات تملأ الأرض كلها فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على أربع... وكل هذا يقف أمام الفكرة وعقلية الإنسانية فيقول:

هل من خالق؟

وهل من خالق غير الله يرزقكم؟

إن الإنسان ينطق باسم هذه الكلمات الثلاث وهو لا ينطق بكل ذالك إلاّ للاعتراف بجميل الإيجاد والتكوين ولتبقى الفطرة ولتبقى معها العقل وسيلتين من أقوى وسائل الإدراك...

إنها صورة امرأة جميلة أطرت أجمل تأثير وعقلت بالحائط – فتقول:

هل من مصور؟

أو إنها روح الإدراك التي تجعل الإنسان في غاية ما هو فيه من الشعور بمعاني هذه النعمات التي يتلقاها على أوتار الكمنجة، إذا ضرب عليها الفنان بأطراف البنان...

أو أنه الإنسان في تركيبه العجيب الذي جمع بين الاختلال والنظام وكان وكأنه اختلال منظم يُعبر عن أرقى درجات الفنّ التكويني، والذي يقول من أجله القرآن الكريم:

يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(٦)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(٧)فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨) الإنفطار

ويقول:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢)ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣)ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥)ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ(١٦) المؤمنون

ولا شك أن الحكماء المتدينين منهم وغير المتدينين الشرقيين منهم والغربيين اتفقوا على شيء واحد: هو أنّ الإنسان مجموعة من أجهزة محددة يتصل بعضها ببعض، ويستقل بعضها عن بعض.. وأنّ الحدود التي بها يعبّر عن الإدراكات هي وسائل مستعارة وعلم آدم الأسماء كلّها وهي وسائل إذاً مستعارة واتفاقيات مستعادة يفهم عنها الإنسان وخصوصاً الإنسان المسلم بل يفهم معنى العبودية، وأنّ حياته بإرادة غيبية لا يحيا بها إلاّ حكمة غيبية...

ثم لا محال وراء الحق الذي نطق به إبراهيم الخليل:

" وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" فيجيب الغيب: نعم ! أيها الخليل.. ولدينا كتاب ينطق بالحق، كتاب الإرادات...

ثم لا محال أيضاً وراء الإيمان بهذا الحق – وإلاّ فلا أمن ولا حياة ولا شيء!

ولكن هناك إيمان وإيمان:

الإيمان الحقيقي الذي يأتي الإنسان عن مصدر الخير، والإيمان التقليدي الذي لم يكن إلاّ تغربة من تغارب الشيطان الرجيم ... هذا الإيمان الذي يمشي وراء الشرك ويمشي وراء المزاعم التقليدية، من علم يحيّر ويضلّ، ونعمة تطغي وتميت، وسلطة لا تؤدي إلاّ إلى الذلّ والهـلاك وعقيدة كلها هوان وسبة:

وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى(٨١) طه

انظر إلى الحضارة الغربية وما عليه البلاد الأخرى إنها لشركة مؤسسة بين هـؤلاء الثلاثـة... ولكل واحد منهم مقام مخصوص:

فالإله لا يمكن أن يكون غير الإله وغير الإله الواحد.

ولو معه من إله إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض!

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) الأنبياء

وما من إله إلاّ إله واحد!

والشعب لا يقوى على رفض العبودية والانقياد... وإلاّ فلا شعب!

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١) الأنبياء

وسيبقى العالم إبداعاً فنيًّا يُزودُ ما يزوّد به من مقدار الحركة بلا زيادة ولا نُقصان ...فيقال له سر ببركة الله.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣)ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(٤) الملك

وإلا فلا عالم

وإنها لشركة مؤسسة بين قادر وعاجز بين قادر يعهد كل شيء ويخلق كل شيء، وعاجز لا يعهد إلاّ قدر ما في وعاءِ القلب... بين قادر غير مسؤول وعاجز مسؤول... بين قادر يقول:

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) الملك

ويقول:

قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا – سَيَقُولُونَ لِلَّه.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ – سَيَقُولُونَ لِلَّه.

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّه.

ويقول:

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(٢) الفرقان

ويقول:

وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(٣) الفرقان

ويقول:

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا(٤٧) الفرقان

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا(٥٣)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا(٥٤) الفرقان ... بين هذا القادر وعاجز يقول:

لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(٧٧) الأنعام

ولا شك أن الهداية لا تكون إلاّ بالعلم لايكون إلا عن سبيل الوحي يقول البسطامي في ذالك:

أخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت!

ويقول القرآن الكريم في ذالك مخاطباً أمير الأساتذة والمعلمين:

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(٦) النمل

وهذا السيد "مارتين" ينتظم في هذا السلك ويصرخ أمام الإيحائيين:

Il y a une inspiration d'ordre surnaturel à laquelle les dons du St-Esprit nous rendent dociles et qui présuppose la charité ; elle élève les âmes saintes au mode surhumain d'agir qui fait la vie mystique

Mais dans l'ordre naturel aussi, il y a une inspiration spéciale qui , elle aussi , est au-dessus de la délibération de la raison et qui procède , comme la notait Aristote, de dieu présent en nous...

إنها لشركة مؤسسة لا يحكم فيها، ولا يديرها إلاّ صوت واحد... فكان حظّ بعض منهم الحكم المطلق، والإرادة المطلقة وحظُّ بعض آخر الرضى بالحكم والقبول للإرادة - لئلا يخسر المحدون بالمطرود ؛ ولئلا يتحول العصيان إلى المشي وراء العدوان... وكان كما قال الخليل:

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(٧٧)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(٧٨)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي(٧٩)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي(٨٠)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(٨١) الشعراء

وكما قال الكليم:

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي(٦٢) الشعراء

إنها لشركة مئسسة ينطوي فيها جميعًا معنى الكمال والنقصان ، وينطوي فيها معنى الإطلاق والتحديد ؛ وينطوي فيها معنى الخير والشر؛ وينطوي فيها معنى الصداقة والعداوة -

فيبقى كلّ هذه المعاني تحت أمر الخصائص والطبائع أو تحت أمر أعضاء الشركة الذين يقول بعضهم في حقّ بعض:

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(٥٧)وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(٥٨)وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ(٥٩)وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠)أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ(٦١) المؤمنون

والذين يقول بعضهم في حقّ أسداء البعض:

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(٤٤) المؤمنون

فإن الإيمان أو الاعتراف بهذا الوجود فهو أصل كلّ شرف للعقل البشري وهو السبب في كون الإنسان عضواً مختارًا للشركة يترقى ويترقّى فيها بإغناء من رأس مال المؤسس... وذالك من دون أن يكون هناك أي مقابل ...

وذالك أيضًا نيفهم الإنسان معنى تلك الوحدة الوجودية التي من أجلها يقول السيد "محمود الوراق":

من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة

والتي من أجلها يقول الإمام الغزالي: الموجودات كلّها أخوات بعضهن لبعض – نعم! إنما الموجودات أخوات فأصلحوا بين هؤلاء الإخوان أيها السادة! حتى بين الجنة والنار.

وفي هذا المعنى تقول السيدة العدوية:

كلهم يعبدوك من خوف نار

ويريدون النجاة حظًا جزيلا

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

أو بـــأن يـــسكنوا الجنـــان فيحظـــوا
بقـــصور ويـــشربوا سلـــسبيلا
لـــيس لي بالجنـــان والنـــار حـــظ
أنـــا لا أبتغـــي بحـــبي بـــديلا

وهذا السيد المسيح يقول في ذالك وبأقوى عبارة: " وملكوت الله فيكم "!
فالسيد المسيح ينقل ظواهر الإيمان إلى بواطنه فيقول: "وملكوت الله فيكم" !
وهذا بعض شعراء المتصوفة يقول في هذا المنهج:

تأمـــل ســـطور الكائنـــات فإنهـــا
مـــن المـــلأ الأعلـــى إليـــك رســـائل
لقـــد خُـــطَّ فيهـــا لـــو تأملـــت ســـطرها
ألا كـــل شـــيءٍ مـــا خـــلا الله باطـــلُ

فإن هذا الإيمان أو هذا الاعتراف تجربة من أنفع تجارب الحياة وعزة دونها كلّ عزة وأيُّ شيءٍ أولى بالإنسان من هذا الهدف؟ وأي تجربة أنفع له من هذه التجربة؟ ولـــو أدّى في بعض الأحيان إلى سوء السمعة وإلى الموت:

وكان كما قال الحلاج عندما حكم عليه بالقتل أثناء تجربته وقدم للجذع:

لبيـــك يـــا عالمـــا سِـــرّي ونجوايـــا
لبيـــك لبيـــك يـــا قـــصدي ومعنايـــا

أدعــوك بـــل أنــت تــدعوني إليــك فهــل
ناجيـــتُ إيـــاك أم ناجيـــتَ إيايـــا
حـــبي لمـــولاي أضـــناني وأســـقمني
فكيـــف أشـــكو إلى مـــولاي مولايـــا
يا ويح روحـــي مـــن ريحـــي ويـــا أســـفي
علـــيَّ مـــني فـــإني أصـــل بلوايـــا

بل يقول في هذا المعنى بعض مفكري المسيحية السيد "جاك مارتين":

Vous pouvez vous figurer quel plaisir il y a à se trouver à la merci de Dieu seul

وهذا السيد "جان لاكروا" يقول في هذا المجال:

"أصبحت الفضيحة اليوم تسود العالم الإنساني، ومن واجبنا إذًا أن نتجاهل سـلطتها ونعمل للقضاء عليها احتفاظًا بشخصيتنا... والوسيلة الأولى إلى ذالك هي الاعتراف بوجـود الله تعالى !

فإن الله تعالى حقيقة كائنة تتصاغر دونها الحقائق كلها – فإن لم يكن الله فكيف يكون العالم؛ فالاعتراف إذاً بوجوده يُفيد التغلب على عوامل هذه الفضيحة...

ويستشهد بما قاله السلف:

ما أسعد الذين يطيعون بلا أي غرض إن لم يكن غرض الإطاعة... وهذا الفـضل لا يعود إلى إرادتهم ولكن إلى ذالك النور الذي يهدي به الله من يشاء"

"وأنا في قتال مع العفاريت الأربعة الذين تُعرف قوّتهم وحذاقتهم!

وقد شاء الله أن يصبح القِتال من أشد ما يكون – لاسيما والعدوُّ يتجلّى في أكثر من ألف صُورة"

Jean Lacroix, en fidèle cartésien et à partir de la notion existentialiste de l'absurde, ébauche une démonstration de l'existence de Dieu

L'absurde a élu domicile dans notre univers; la plus impérieuse exigence, à la fois logique et morale de notre personnalité, ne serait –elle pas de refuser cette absurde?

Dieu existe parce qu'il le mérite, parce que, sans lui agir le monde n'a pas de sens…

Croire, c'est donc refuser l'absurde.-

Et il cite la devise des anciens :

Heureux ceux qui, sans délibérer, sont portés à bien agir.

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) فصلت

Cela ne vient pas de leur volonté, mais d'un principe présent en eux, qui est supérieur à leur intelligence et à leur volonté

وإلاّ فكما قال الشاعر:

إبليس والدنيا ونفسي والهوى   كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وهذا السيد "مرتين" أيضاً يعلق على هذا البيت ويقول:

C'est toujours Maritain qui reprend ce passage pour le compte de l'Église catholique :

Je suis entré en combat avec quatre démons des plus puissants et malicieux de l'Enfer, moi, de qui vous connaissez les infirmités. Dieu a promis que les combats ont été si rudes, et les approches si fréquentes ; que le moindre champ de bataille était l'exorcisme, car les ennemis se sont déclarés en secret, de nuit et de jour, en mille manières différentes

نعم ! إن هذه التجربة هي عين السعادة للإنسان، كأنها هي نفس الاطمئنان وهي المعنى العظيم للتجربة والسلام

وكان كما قال الشاعر:

كانـــت لقـــبي أهـــواء مفرقـــة

فاســـتجمعتْ مـــذ رأتْـــك العـــينُ أهـــوائي

وكما يقول في مقام آخر:

وما زالت إياهـــا وإيـــاي لم تـــزل   ولا فـــرق. بـــل ذاتي لـــذاتي أحبّـــت

افتراق باتفاق في عالم بلا شكوى في عالم بلا عصيان – وكان كما قال ابن الفارض:

وكـــل أذى في الحـــب مـــنكم إذا بـــدا

جعلـــتُ لـــه شـــكري مكـــان شـــكيّتي

أو في عالم لم تكن الشكوى فيه إلاّ نوعًا من الاستغاثة ولم يكن العصيان فيه إلاّ نـــوعٌ من الاعتراف بكمال هذا الوجود ! يقول الكاتب والشاعر الفرنسي الكبير الـــسيد "جـــان كوكتو" رفضًا للشكوى عن هذا العالم:

Ce qui nous frappe comme nue malchance, comme une aptitude au drame, compose ailleurs un chef-d'eouvre ; notre injustice vient d'une courte vue. Que pense la toile sur laquelle Picasso est en train de peindre ?
‹Il me tache, il me cache, il me salit…›

عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

ولا شك أنَّ هذه التجربة تنافي الشكوى وتنافي العصيان – ولا تستغني بقشور الآيات ولا بزخارف الحياة.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (٩٧) الأعراف

ولو قبلوا هذه التجربة لأطعناهم على العلوم لتعاقد بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملك والملكوت !

وما أحسن قول الحكيم في ذالك:

حبي به فحياة دونها كلم
حبي به فجهاد غير مكتوب
أين الحروف وإني بينها ملك
يستنزل الصخرة الصما بتأديب
فلا أبالي فوزي في مقاطعة
أو في مجانسة يومًا كمحجوب
قَلب طهورٌ وروح بعد سامية
ووصلة بمقام فيه محبوب
لا حكم لي في أمور الخلق إن معي
عن الأمور اهتمامي بالتجاريب

وهذا السيد الحكيم التيجاني الحسني يقول:

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

مما يمتاز به رجال هذه المقام رفعُ الهمة عن الناس...

ويقول:

دفعت من أول الأمر إلى الحضرة الرباني، وأنا إذ ذاك غير مشغول بعوائد الناس.

والسيد المسيح يقول في هذا الشأن: أليس الحياة أفضل من الطعم؟ أليس الجسد أفضل من اللباس؟

والسيد "ريدولو ستاينار" يقول:

Celui qui, par une discipline méthodique, a atteint le degré de clairvoyance nécessaire, distinguera la réalité spirituelle de sa représentation personnelle

ولا مطمع للأدب التركيبي في ذالك كما أشارت إليه الأبيات السابقة .

والسيد "كوكتو" يؤيد هذه الفكرة بهذا القول:

La littérature est impossible. Il faut en sortir. Il est inutile d'essayer d'en sortir par de la littérature : seuls l'amour et la foi nous permettent de sortir nous même. Avoir recours au rêve n'est pas quitter la maison

Et il poursuit avec tristesse :

Je commence à me fatiguer du beau incapable de tenir le coup en face de n'importe quel hasard

Je devine une époque où l'esprit, abandonnant ses véhicules maladroits, renoncerait à convaincre par l'entretient du chef-d'œuvre.

La beauté deviendrait peu à peu bonté, les chefs-d'œuvre actes du cœur, sainteté le génie !

قد لبسنا هياكل النور لما فارقتنا الهياكل البشريه

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

ويقول القرآن الكريم في هذا المعنى العظيم:

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) فاطر La "literature

L'art pour l'art, l'art pour la foule sont également absurdes.
Et la noblesse nous propose l'art et tout pour Dieu

ولكن لا يدرك هذا المعنى إلا المحققون والذين يجهلون فكرة التساقط التي أدّت إلى إهلاك الروح، وإلى إهانة الإيمان باسم الإيمان – هؤلاء المحققون الذين لسان حالهم في بيت من الشعر:

خليليّ قطّاع الفيافي إلى العلا كثير وإن الواصلين قليل

ويقول:

نأت دار ليلى الهوينا تنالها فشمّر فإن القوم بالجدّ أبرموا
ودع حسن ليلى واشغل بمرامها ولا تلتفت للغير إن كنت تفهم
وتحديثها للأجنبي جناية وكن عارفاً بالوقت والليل مظلم

Maritain reprend ce passage aussi bouleversant qu'inquiétant :

Vous savez le secret des réussites périlleuses, vous apprendrez à nos amis. Votre programme est bon

Pourtant, qu'ils ne s'y trompent pas, c'est à une dure partie qu'ils sont conviés, où il y aura des blessures et des morts.

Bien que je désire fort qu'une telle partie s'engage, je n'y pousserai personne. Mais aux «gaillards capables de tout» à Moise, à Jésus, à Mohamed, à leurs apôtres qui veulent tenter l'aventure, je dis : vous ne tiendrez que par grâce.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا(١٧) الكهف

Ce qui veut dire l'ordre des agents répond à l'ordre des fins…

Ici la fin ne justifie nullement les moyens : ce sont les moyens qui, au contraire, seraient appelés à justifier la fin. Ce grand art pour Dieu suppose autre chose ; cela suppose Dieu dans l'âme !

ويقول:

ليس التصوّف لبس الصوف ترقعه
ولا بكاؤك إن غنّى المغنونا
ولاصياح ولا رقصٌ ولا طرب
ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوّف أن تصفوا بلا كدر
وتتبع الحقّ والقرآن والدينا

"الفن أو الفن للجمهور عبث..ولكن الشرف والفن وغيرهما فلتكن لله عز وجل!.

والسيد ماريتين يردد هذه الرواية المدهشة المحيرة:

" ولقد عقلتم سر النجاحات الخطيرة المشرفة على الهلاك ؛ ولعلكم تعملونه للأصدقاء. وبرنامجكم محبذ؛ ولكن من شرفكم أن لا يخدعوا أنفسهم ... فالنضال الذي يدعون إليه شديد ؛ وسوف ينكشف عن جروح وقتل – ولكن أتمنى أن لا تخلو الأرض المعارك بصبر وجلد ؛ كموسى بن عمران وعيسى ابن مريم ومحمد بن عبد الله وأصحابهم الذين يريدون التقدم على المغامرة ؛ أقول لهم: ولولا نعمة الله عليكم فلا يمكنكم الوصول على النجاح ! ما يعني أن نظام الوسائل تتجاوب مع نظام الهداف ؛ ومن هنا نفهم أن الهدف لا تسترضيه الوسائل إلا إذا كانت الوسائل من جنس الهدف ؛ وعلى هذا تبقى الوسائل كشروط لا محيد عنها في الوصول إلى الهدف... وهذا الفن الذي ينسب إلى الله يحكي شيئا آخر ؛ يحكي أن في الروح شيئا من الله.

ويقول السيد "مارتين" تأييدًا لهذه الفكرة:

Croire, il ya un art, et le plus admirable !
Et pourtant l'art se défend mal contre un ange impur qui le gifle, et qui tout utiliser pour amour propre, et le don même que le cœur fait de soi , et sa noblesse même, et Dieu même

واندفاع الشيطان وراء هذا الإيمان أخف من دبيب النمل ... بل إن اندفاع الشيطان وراء هذا الإيمان داعية من دواعي التحاسد والتباغض ...حيث أن التسارع إلى الحسد أو إلى الغضب ليس من الإيمان في شيء.

وهذا هو القرآن الكريم يدعو إلى الحبّ وإلى الحبّ المشترك... لنشر المؤاخاة حول المصالح – فيقول:

يبهم ويحبونه

ومن الواضح أن هذا الحب هو السبب والسبب الوحيد في إعادة الحياة إلى الغيب...

يحب الله المؤمنين ويحبه المؤمنون ولا شيء أشمل بالخير من توسيع الصدور أمام هذه الحادثة الكبرى.

يقول السيد "جاك بير جين" المنطقي الشهير تعليقاً على السيد "ستاينير":

Il faudra bien que l'art examine ce phénomène de télépathie avec l'infini.

On devra dépouiller tout le matériel mis à notre disposition par la civilisation et chercher des moyens d'accéder à une masse d'informations supérieures à celle fournie par la science depuis des siècles de travail

" الإيمان بالله فها هنا أجمل ما يكون من فوق ! والحق إن الفن يدافع عن نفسه عندما يقوم أمامه الملك الشيطاني الخبيث الذي يحاول إيذاءه والذي يستخدمه في سبيل ارضاء الهوى النفساني ويرفع عنه معنى النعمة العظمى!".

ويقول السيد "هانز داويد شورو" يُقدر هذه الفكرة أحسن تقدير ويقول:

Si un arbre ne peut vivre selon sa nature, il dépérit, un homme de même

Il pense que, tel un arbre, l'homme n'était si solidement enraciné dans la terre que pour s'élever dans la même proportion vers les cieux

وكن رجـلاً نفـسه في الثـرى   وهامـة همتـه في الثريـا

ومهما بلغت الهمة إلى هذه الغاية، فإن شرف العقل البشري لا يخرج عن هذا الحـدّ، حدّ الإيمان بهذا الوجود الكامل الذي تتساقط دونه المخترعات والآلات والعظمات؛ وتتصاغر دونه المكائد والسلطات!

هذا هو القرآن الكريم يقول في ذالك:

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ (٥١) النمل

ويقول:

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (١٨) الأنعام

ويقول:

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤) آل عمران

لاسيما وقد أخذت علماء الذرة والمخترعون تفكر في ما هو مصير المخترعات وتقول إن كل هذه الاكتشافات التي يتحير أمامها العقل البشري ليست إلا كمردد لذالك الـصوت الخافي الذي يسكن الغيب والذي بواسطته يكون الاكتشاف، ويكون العلم، ويكون الاختراع ويكون كل شيء.

والدليل على ذالك أن القنبلة الذرية هي أعجب مخترعات هذا القرن فما هي إلاّ بعـض مـا ورثه الخلف عن السلف.

وهذا السيد "كلود جالين" يقول في كلمة جاء فيها:

Des textes indiens, vieux de quelques milliers d'années, nous entretiennent en effet d'une arme effrayante qui évoque notre propre bombe atomique : un obus étincelant qui brillait sans émettre de la fumée. Il fut lancé sur l'ennemi et un épais brouillard enveloppa tout. Des tourbillons empoisonnés se déchainèrent. Des nuages s'élancèrent à l'assaut du ciel avec un bruit épouvantable.

Le soleil parut vaciller. Le monde entier fut brulé par la chaleur de l'explosion comme par une effroyable fièvre.

Extérieurement, cette arme ressemblait à une flèche métallique énorme qui évoquait un gigantesque messager de mort.

ولكن انظر كيف كان عاقبة مكرهم وما كان عاقبة مكر العلماء والمخترعين والملـــوك من عهد الأوادم إلى الآن – إلاّ عظاماً نخرة...

فكيف لا نؤمن مع كل ذالك بهذا الوجود الكامل المطلق؟

وما أحسن قول المعري في هذا المقام:

قـــال المـــنجم والطبيـــب كلاهمـــا

لا بعـــث بعـــد المـــوت قلـــت: إليكمـــا

إن صـــحّ قولكمـــا فلـــستُ بنـــادم

أو صـــح قـــولي فالخـــسار عليكمـــا

فكيف لا تؤمن به... وهذا هو القرآن الكريم يقول:

مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩) يس

ولكن من هو هذا الإله؟

يقول صهر الرسول وابن عمه:

"إله لا يبلغ من حقه القائلون، ولا يحصي نُعماه العادّون، ولا يؤدّي حقه المجتهـدون، الذي لا يدركه بعدُ الهمم، ولا يناله غرض الفطرة، ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل معدود فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه. أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيـده، وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنهـا غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة.

فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه؛ ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدَّه، ومن حدّه فقد هدّه، ومن قال فيم فقد خمنه، ومن قال علامَ فقد أخفى عنه. كائن لا عن حدث،موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده.

أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا روية أجالها، ولا تجربة أسـتفادها، ولا حركـة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها أجال الأشياء لأوقاتها، ولاءَم بين مختلفاتهـا، وغـرّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالمًا بها قبل ابتدائها، محيطًا بحدودها وانتهائها، عارفـا بقرائنـها وأحنائها....

إن تقـل كيـف فقـد مثلتـه أو تقل أيـن فقـد رمـت الحلـول
وهـو لا كيـف ولا أيـن لـه وهو رب الكيـف والكيـف يحـول
جـلّ ذاتـا وصـفاتٍ وسمـا وتعـالى قـدره عمـا تقـول

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته!

١٨/٠٥/٢٠١٠م

السيد الشيخ أحمد التجاني سي

الفهرس